غوتيه

فاوست

(المأساة)

ترجمه عن الألمانية

د.محمد عوض محمد

تقديم

د. طه حسين

الكتاب: فاوست (المأساة)

الكاتب: غوتيه

ترجمه عن الألمانية : د. محمد عوض محمد

تقديم: د. طه حسين

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم –
الجيزة - جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

غوتيه

فاوست (المأساة)/ غوتيه, ترجمه عن الألمانية : د.محمد عوض محمد،

تقديم: د. طه حسين

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٥٠ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ١ – ٣٦٨ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٢٣٢١٨ / ٢٠٢١

فاوست
(المأساة)

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

كلمة شكر

يشكر المترجم من صميم قلبه جميع أصدقائه الذين تفضلوا بمطالعة هذه الترجمة ونقدها قبل تقديمها للطبع، ويخص بالذكر منهم الأستاذ أحمد حسن الزيات رئيس قسم اللغة العربية بالجامعة الأمريكية، الذي قرأ الترجة غير مرة وراجعها على التراجم الفرنسية، وأبدى للمترجم من النقد والنصح ما مكنه من تلافي كثير مما بالكتاب من نقص وخطأ.

فإلى الاستاذ الكريم يقدم المترجم شكره الخالص .

المترجم

مقدمة

-١-

عرفته منذ أعوام هادئ النفس، صافي الضمير، كريم الخلق عذب الحديث؛ وكان يلذ لي أن أسمع له فأفهم، كما كان يعجبني أن أتحدث إليه فيفهم عني؛ كل ذلك في سهولة ورفق، من غير تكلف ولا محاولة. وكنت أقدر أن بينه وبيني صلة خاصة تقرب المسافة بيننا أو تمحوها. ولم تكن هذه الصلة بالطبع تنشأ عن المادة التي اختص بها، وبرع فيها. فقد كان يقال إنه وصاف للأرض ماهر في الوصف، مقوم للبلدان بارع في التقويم. درس في مصر ثم في انجلترا وعاد إلى مصر يحمل إجازات راقية في الجغرافيا، وحظي من هذا العلم قليل، ولا يمكن ألا أن يكون قليلا؛ وإلا أن يكون مشوهاً بعض التشوية- آثر الخيال والخطأ فيه أكثر من أثر العلم والصواب- فلم يكن غريباً أن أبحث عن هذه الصلة التي كانت تقرب بيني وبين الأستاذ مُحَمَّد عوض، حتى قال لي قائل إنه يحب الأدب ويشغف به، ويعكف عليه حين يفرغ من وصف الأرض وتقويم البلدان. وقال لي قائل بعد ذلك إنه يحب اللغات ويدرس منها ما يجد إلى درسه سبيلاً. فهو يتقن الإنجليزية والألمانية ويحسن الفرنسية وله من التركية حظ ومن الفارسية نصيب؛ وهو إلى استظهاره النصوص العربية القديمة الغليظة لا يحب من اللغات الأجنبية التي يحسنها أو يلم بها إلا خلاصاتها العلمية والفنية والأدبية؛ لا يعنيه كثيراً أن يتكلمها في الأندية ودور التجارة؛ وإنما يعنيه أن يفهمها وينفذ إلى لبها الخالص. قال لي قائل هذا كله فقلت معجباً مبتسماً: إنه ليذكرني بجوته، فقد كان هذا الشاعر على ألمانيته طلعة مسرفاً في الطموح إلى ما لا يعلم؛ يحسن لغات أجنبية ويلم بلغات أخرى ويحاول أن ينفذ إلى لباب هذه اللغات وآثارها الفنية

والأدبية؛ لا تصرفه اللغات الجديدة عن اللغات القديمة ولا تلهيه لغات الغرب عن لغات الشرق فقد اتصل بالمستشرقين وقرأ صوراً من الأدب العربي وحاول أن يترجم إلى الألمانية أو ترجم بالفعل القصيدة المشهور.

أن بالشعب الذي عند سلع لقتيلا دمه ما يطل

ولم تكن اللغات وآدابها لتلهي جوته عن العلم، والجد في تحصيله والإمعان فيه فقد كان يعني إلى آخر أيامه بالعلوم الطبيعية عناية لا تعدلها إلا عنايته بالآداب والفنون والفلسفة- قال صاحبي: وإن صديقنا ليحب جوته ويقف عليه كثيراً من وقته؛ وقد أخبرت أنه ترجم (فوست) أو يترجمه. وقد أخبرت أنه يترجم من الألمانية، لا من لغة أخرى؛ وقد أخبرت أنه إذا فرغ من قطعة واستوثق من حسن الملاءمة بينها وبين الأصل الألماني قابل بين ترجمته العربية وتراجم مختلفة في الإنجليزية والفرنسية ليطمئن إلى حسن فهمه وصحة نقله.

هنالك عنيت بالتودد إلى هذا الجغرافي الغريب. وانتهزت كل ما أتيح لي من فرصة لأتحدث إليه فأطيل الحديث ولم أزل به حتى اضطررته إلى أن يعترف بأنه يترجم فوست وبأنه قد مضى في هذه الترجمة إلى أمد بعيد.. ثم التقينا في لندرة إبان الصيف الماضي ومكثنا أياماً لا نكاد نفترق، وكنا كلما التقينا ابتدأنا حديثاً لا ينقطع إلا حين نفترق كارهين. وكنت أفكر، كلما تحدثت إليه أو تحدث إلي، في (فوست) وترجمته لفوست؛ وكنت أقول في نفسي يجب أن تكون هذه الترجمة صحيحة دقيقة متقنة لأن نفس صاحبي قد تلونت بلون جوته ففي حديثه سخرية متصلة هادئة دائماً، ولكنها عميقة لاذعة دائماً.. وكذلك جوته في القسم الأول من فوست وهو القسم الذي يترجمه صاحبي. ولست أدرى أيذكر الناس أني قدمت إليهم منذ سنين ترجمة صديقي الزيات لآلام فرتر، وإني اشترطت في هذه المقدمة ألا يكتفي المترجم الأدبي بإجادة الترجمة من لغة إلى لغة

بل أن يلبس نفس المؤلف وينقل إلى الناس شعوره وحسه وعواطفه وميوله وأهواءه كما يجدها المؤلف نفسه، اشترطت هذا الشرط في نقل الآثار الفنية والأدبية. ولم أكن أشك وأنا أتحدث إلى مترجم (فوست) أنه قد استطاع أن يلبس نفس جوته، ويحس كما كان يحس، ويرى الأشياء كما كان يراها؛ لا في أطوار الترجمة وحدها، بل في حياته العادية المتصلة. وسيستطيع كل قارئ عرف الأستاذ أن يتحقق هذا بنفسه حين يقرأ (فوست) فيرى نفس جوته ثم يتحدث إلى المترجم فيرى كيف اصطبغت نفسه بتلك الصبغة، وكيف اتخذت لغته وأحاديثه هذه الألوان التي يراها فيعجب بها حين يقرأ ما في (فوست) من لغة وحديث.

رجل وقف الخلاصة من حياته على الجغرافيا واستطاع مع ذلك أن يعنى بالأدب، ويأخذ منه بحظ موفور. ثم أن يهجم على أشق الآثار الأدبية وأعسرها، وأبعدها عن اللغة العربية، خليق بالإعجاب وإلا كبار؛ وقد أكبرته وأعجبت به وطلبت إليه في شيء كثير من الإخلاص والمودة الصادقة أن يدع إلى تقديم ترجمته إلى جمهور القراء من أهل العربية فقبل مبتسما وأحسبه كان راضياً وأحسب أن هذا الرضا لم يكن يخلو من الاغتباط.

-٢-

ولكني حين كنت أعرض على صاحبي هذه المقدمة لم أكن أقدر أني سأتردد كثيراً قبل أن أكتبها. وسأضطر إلى قراءة طويلة شاقة؛ منها اللذيذ الحلو ومنها الثقيل الممل، قبل أن أبدأ في املائها. ولم يكن صاحي حين قبل ما عرضت عليه يقدر أني سأضنيه وأعنيه وأؤخر صدور ترجمته الأشهر الطوال، قبل أن أدفع إليه هذه المقدمة. ذلك أن غرور الإنسان لا يعدله شيء فنحن نظن بأنفسنا القدرة على تصريف حياتنا كما نحب ونهوى، حين تخضعنا هذه الحياة

لضروب من العبث وألوان من التحكم لا نكاد نعرف لها مصدراً أو نقدر لها غاية. أنه لفي ترجمته منذ سنين يقدم عليها حيناً ويحجم عنها حيناً آخر، يحبها ويكرهها، ينتصر وينهزم ويغالب فيرضى ويكره. وإني لفي ما أنا فيه من عمل مختلف، فيه ما يسر وفيه ما يسوء وفيه على كل حال ما يصرفني عن جوته وآثار جوته وترجمة هذه الآثار إلى اللغة العربية أو غيرها من اللغات. ثم يشاء الله في يوم من الأيام أن يتم لصاحبي النصر، وأن يقدم ترجمته إلى المطبعة وأن تهيأ هذه الترجمة لتلقى إلى الناس وأن يستنجزني صاحبي ما وعدت في الشتاء فإذا أنا غريق في الفرزدق وجرير ثم في الربيع فإذا أنا غريق في الأخطل وذي الرمة ثم في الصيف فإذا أنا غريق في أعمال أخرى ليست من هؤلاء الشعراء بسبيل؛ ولكنها ليست قريبة من جوته ولا مرغبة في قراءته والتفكير فيه.. وصاحبي ينتظر وأنا أعتذر وهو يلح في رفق وأنا أتعلل في دعة. وكيف أقدم كتاباً لم أقرأه! أليس يجب أن أقرأ هذا الكتاب لأستطيع أن أقول عنه شيئاً؟ فلأختلس إذن ساعات أو لحظات أقرأ فيها هذا الكتاب قراءة متفرقة لا صلة بينها ولا جامع بين أجزائها. وعلى هذا النحو قرأت الكتاب في أشهر.

ولكن أليس من الحق على أن أقرأ هذه الترجمة في لغات أخرى غير اللغة العربية وبأقلام أخرى غير قلم الأستاذ عوض وأن أقارن بين ما أحدثت الترجمة العربية في نفسي من أثر وأثارت من شعور وبين ما تحدثه وتثيره التراجم الأخرى في هذه النفس؟ فلأختلس إذن ساعات ولحظات أخرى أقرأ فيها هذه التراجم. ولأقارن بين الترجمة الفرنسية مثلا والترجمة العربية لأنظر أيهما أحسن في نفسي وقعاً وأيسر إليها مسلكا. ثم لقد بعد العهد بيني وبين جوته فنسيته والأدباء الأوربيون يذكرونه ويتناولون حياته وآثاره بالدرس والبحث في غير ملل ولا انقطاع فيكتشف في كل يوم عن جديد ويظهرون في كل يوم شيئاً لم يكن

معروفاً. أليس من الحق على أن ألم بشيء مما يكتبون لأقدم هذه الترجمة للناس عن شيء من العلم والبصيرة ودون أن أتورط في هذا الجهل المنكر الذي يتورط فيه من ريقرءون ولا يتحرجون مع ذلك من الكتابة والإسراف في الكتابة عما يعلمون وما لا يعلمون؟ لأختلس إذن ساعات ولحظات أخرى أقرأ فيها بعض ما كنت الناس عن جوته في هذه الأعوام الأخيرة، وليحتمل صديقي الأستاذ عوض بعض المشقة في هذه القراءة فعلية أن يبحث لي عن الكتب وأن يحملها إلي. وعليه في بعض لأحيان أن ينظر في هذه الكتب ويعلم لي صحفاً يحسن أن أقرأها أو أنظر فيها. فالكتابة عن جوته كثيرة كثرة لا تكاد توصف متشبعة تشبعاً ليس من اليسير أن نحيط به.. قوم يكتبون عنه طفلاً وآخرون يكتبون عنه شاباً وقوم يكتبون عنه شاعراً وآخرون يكتبون عنه فيلسوفاً، هؤلاء يبحثون عن أسرته وأولئك يدرسون رفاقه في الصبا، هؤلاء يقفون جهودهم على حياته الغرامية. وأولئك يصرفونها إلى حياته العامة، هؤلاء يعنون بفوست الأول. وأولئك يعنون بفوست الثاني. وآخرون يعنون بفرتر. وقوم يعنون بقصص تمثيلية أخرى. وقوم يعنون بمقطوعات غنائية وآخرون لا يفكرون في جوته إلا من الناحية العلمية.

وعلى هذا النحو يتشعب البحث وتمتد أطرافه مع امتداد الزمن وقدرة الباحثين على الدرس والتنقيب. يحاول الباحثون والمنقبون أن يحيطوا بصاحبهم ويحصروه في دائرة ما حتى لا تفلت منهم دقيقة من حياته أو آثاره. هم يدأبون في ذلك وشخصية جوته تدأب في العظم والامتداد. تمتد كما يمتد البحث. فإذا هي تفلت من الباحثين وإذا شيء منها كثير لا يزال مجهولاً سيتعب الناس ويكلفهم ضورباً من الجد حتى إذا ظفروا به أ خيل إليهم أن قد فروا تبينوا أن شيئاً كثيراً من هذه الشخصية لا يزال بعيداً غامضاً عسيراً وكذلك عظماء

الرجال لا يبلغون أوج العظمة حين يموتون؛ وإنما يبدءون هذه العظمة حين يموتون. وهم كالمثل الأعلى يطمعون الباحثين والساعين إليهم يحثونهم بذلك على البحث والسعي ولكنهم على ذلك يبعدون عنهم وينأون لأنهم يعظمون ويعظمون كلما طال عليهم الزمن أو بعد بهم العهد.

وقد كان جوته رجلا عظيما فرضت عظمته على الإنسانية العاقلة الحساسة أن تحبه وتسعى إليه وتجد في فهمه والوصول إلى دخيلة نفسه والظهور على عظمته وسر تفوقه. وهل فرغت الإنسانية من درس شكسبير؟ وهل قالت فيه كلمتها الأخيرة؟ كلا لن تفرغ الإنسانية من هذا الدرس ولن تقول هذه الكلمة وكذلك لن تفرغ من درس جوته ولن تقول فيه كلمتها الأخيرة. لن تظفر بعظيم من عظمائها درساً وفهما وتحليلا حتى تظفر بمثلها العليا.

قرأت الترجمة العربية وتراجم أخرى في لغات أخرى لفوست وألممت إذن بشيء مما يكتب الناس في هذه الأيام عن جوته وعن آثاره وعن فوست بنوع خاص. وأشهد لقد بهرتني الترجمة العربية، فما ينقضي إعجابي بها؛ وما أجد إلى تحقيق الثناء عليها سبيلا. أما الدقة فليس فيها شك، وحسبي أن أقارن بين هذه الترجمة العربية وتراجم أخرى في لغات أخرى فأظفر بالملاءمة التامة وحسبي أن أرجع في كثير من الأحيان إلى الأصل الألماني مع مترجمين غير الأستاذ عوض، فإذا ترجمه صاحبي دقيقة دقة لا غبار عليها إلا في مواضع قليلة أعلن إلي هو أنه تصرف فيها بعض الشيء، ولاحظت أن غيره من المترجمين الأوروبيين تصرف فيها أيضاً لأنها لا تستطيع أن تؤدى في غير الألمانية.

ولقد قرأت فيما قرأت أن جوته قرأ في آخر أيامه ترجمة فرنسية لفوست أصدرها الشاعر الفرنسي المعروف جيراردي نرفال فأعلن الرضا عنها والإعجاب بها وقال لبعض محدثيه أنه منذ سنين لا يحب أن يقرأ فوست في

الألمانية وأن هذه الترجمة الفرنسية قد حببت إليه النظر في هذا الكتاب. كان ذلك قبل أن يموت جوته بسنة أو سنتين. وأشهد لو قدر لجوته أن يعيش إلى هذا العصر أو قدر لعوض أن تتقدم به الحياة إلى أوائل القرن الماضي لقال جوته في ترجمته مثل ما قال في ترجمة جيراردي نرفال. ففي هذه الترجمة العربية دقة، وفيها ظرف ورقة، لم نعرفهما في التراجم العربية للآثار الأدبية الأوربية. فأنت تقرأ هذه الترجمة فيخيل إليك أنك تقرأ كتاباً لا ترجمة كتاب. لولا هذه الحواشي القيمة التي يلفتك المترجم بها إلى أنه يترجم كتاباً. فهو يشرح بعض نصوصه الغامضة، أو يفسر بعض أسمائه الغريبة، أو يرد بعض معانيه إلى مصادرها الأولى، وقد تعودنا من الذين يترجمون الآثار الأوروبية إلى اللغة العربية أن تثقل عليهم الترجمة، فيخففون عن أنفسهم ثقلها بتكلف الألفاظ الغربية، يلتمسونها في المعاجم سواء ألفتها الآذان أم لم تألفها، وبالجمل الفخمة الضخمة يفخمونها ويضخمونها ليخفوا ضعفهم في الفهم أو قدرتهم على الأداء. فأما هذه الترجمة فسهلة يسيرة. كتبت باللغة التي يتكلمها الناس ويفهمونها، والتي تسمعها من المترجم حين تتحدث إليه، ليس فيها غريب وليس فيها جملة منتفخة وإنما هو كلام مألوف منسجم عذب لا يصرفك عن المعنى ولا يلهيك عن الموضوع. وكذلك ترجمة جيرار دي نرفال في الفرنسية دقيقة يسيرة واضحة إلا أن يكون الأصل غامضاً فينبه المترجم إلى هذا الغموض كما ينبه المترجم العربي.

وشبه آخر بين المترجمين، وهو أن المترجمين آثرا النثر لأنه أيسر وأدنى ولكنهما في الوقت نفسه لم يهملا الشعر ولم ينصرفا عنه الانصراف كله، فترجما بعض الأغاني وبعض المواضع الخرى شعراً لأن النثر لا يستقيم لها. ولكن جيرار دي نرفال كان شاعراً أما عوض فجغرافي. والغريب أن شعر هذا الجغرافي لا تنقصه الخفة والروعة والظرف في أكثر الأحيان. وإن كان قد يتكلف من

الضرورات ما قد كان يستطيع اجتنابه لو أنه صاحب شعر لا صاحب وصف للأرض وتقويم للبلدان.. ترجمة جيدة لا أعرف أني قرأت ترجمة أخرى لأثر من الآثار الأوروبية في لغتنا العربية تعدلها أو تدانيها دقة وخفة وسهولة وظرفاً. فليهن هذا الجغرافي البارع في فنه، على ما يقول الجغرافيون، هذا الحظ الموقور من البراعة في الأدب والتصرف في فنون الشعر والنثر في غير جهد ولا تكلف ظاهر.

-٣-

وهل أنا في حاجة إلى أن أتحدث إليك عن جوته وفوست بعد أن تحدثت إليك عن مترجمة؟ وهل تظن أني أفيك شيئاً كثيراً من العلم أن قلت لك أن جوته ولد سنة ١٧٤٩ ومات سنة ١٨٣٢ ثم قصصت عليك في إيجاز بالطبع ما تعود المترجمون أن يقصوه من حياة هذا الشاعر الفيلسوف؟ ألست تستطيع أن تظفر بهذا في دوائر المعارف على اختلافها؟ وأنت لا تطمع مني في أن أدرس لك هنا حياة جوته درساً مفصلاً. فأنا أرجو أن شوقك إلى قراءة فوست في اللغة العربية أشد من أن يدعك تقرأ حياةً مفصلةً لمؤلفة الآن ولكن كلمة عن (فوست) نفسه شيء لابد منه قبل أن تبدأ في قراءة هذه القصة الغريبة التي أثرت في الحياة الأدبية والفنية لهذا العصر الحديث آثاراً بعيدة لم تبلغ أمدها بعد ويظهر أنها لن تبلغ أمدها قبل وقت طويل.

فالقصة قد ترجمت إلى اللغات الأوروبية كلها وقد فسرت وشرحت من أنحاء مختلفة وقد مثلت في الملاعب وغنيت في دور الموسيقى. لحنها كبار الموسيقيين في أوروبا المتحضرة ثم انبسطت أشعتها حتى غمرت الآثار الأدبية المختلفة وتجاوزتها إلى الفلسفة فليس هناك أديب من أدباء القرن الماضي ولا من أدباء هذا العصر إلا تأثر بفوست، وليس هناك فيلسوف إلا تأثر بفوست

قليلا أو كثيراً في فلسفته ولا سيما بفوست الثاني الذي هو إلى الفلسفة أقرب منه إلى الأدب والبيان.

وقد نحب أن نتعرف تاريخ فوست فنجد في ذلك شيئاً من المشقة والصعوبة. ذلك أن هذه القصة لم تكتب كما كتب غيرها من القصص التمثيلية التي أنشأها جوته. وإنما استغرقت كتابة فوست الأول أكثر الحياة العاملة للشاعر الفيلسوف. بدأها شاباً ثم انصرف عنها راضياً أو كارهاً ثم كان يعود إليها من حين إلى حين فيكتب منها منظراً أو بعض منظر ثم ينصرف عنها عاماً أو أكثر من عام ثم يعود إليها فيضيف جزءاً طويلاً أو قصيراً. وظل كذلك حتى أتمها أو خيل إليه أنه أتمها في أوائل القرن الماضي. ثم انصرف عنها حيناً؛ ورجع إليها فكتب فوست الثاني. والذي ينظر في هذه القصة يلاحظ شيئاً ظاهراً من التفكك والتفرق والبعد عن الوحدة الفنية ويحس احساساً قوياً بأن الكاتب لم يفرغ لها وقتا بعينه ولم يرسم لها حدوداً معينة وإنما أنشأها على النحو الذي أشرنا إليه.. ولكنه، مع هذا، حين يقرأ القصة ويمعن فيها التفكير يشعر بهذه الوحدة الفنية الفكرية قوية أشد القوة، واضحة أشد الوضوح، فالشاعر لم يضع قصة تمثيلية وإنما وضع حواراً فنياً فلسفياً فهو إذن غير مقيد بالوحدة التمثيلية ولكنه مقيد بالوحدة الفكرية الفلسفية، وقد وفق إلى هذه الوحدة توفيقاً غريباً. كتب هذه القصة في أكثر من ثلث قرن ولكنك لا تجد فيها ضعفاً ولا اضطراباً ولا اختلافاً وإنما تقرأ فكأنك تقرأ لكاتب قد فرغ لموضوعه فأتقنه وأحسن تصويره وتأديته.

المصدر الظاهر لهذه القصة هي أسطورة الدكتور فوست التي كانت شائعة في أواخر القرون الوسطى وأوائل العصر الحديث والتي تناولها بعض الكتاب الإنجليز والألمان فكتبوا فيها كتباً مختلفة بل وضعوها وضعاً تمثيلياً. ولكن لهذه

القصة مصادر أخرى فلم تكن أسطورة الدكتور فوست إلا قالباً صبت فيه فكرة أدبية فلسفية راقية فهل من الحق أن جوته لم يتأثر بما سبقه إليه فولتير من السخرية اللاذعة في خفة وظرف بكل شيء في هذا العالم؟

هل من الحق أنه لم يتأثر بما أثار لبنيتس من خصومة عنيفة بين أنصار الخير والشر حين أعلن نظريته التي لا يمكن أن تصاغ في أحسن من الصيغة الإسلامية المعروفة "ليس في الإمكان أبدع مما كان"؟ ظهرت هذه النظرية في القرن السابع عشر فاختصم حولها الفلاسفة في هذا القرن نفسه وفي القرن الثامن عشر. ووضع فولتير قصة (كانديد) ساخراً من هذا المذهب، هادماً له مقارناً بين الخير والشر، مصوراً لما بينهما من الجهاد العنيف، والصراع المنكر، في حياة الناس ووجود الأشياء.

وانتهى فولتير إلى نتيجة المشهور "ليعش كل منا بحديقته" مؤثراً تسليم الترك واذعانهم للقضاء، على فلسفة الفلاسفة ومحاولتهم فهم أسرارها. كتب فولتير قصته هذه أبان القرن الثامن عشر قبل أن يبدأ جوته في كتابة فوست بوقت غير طويل وكان جوته مشغوفاً بفولتير كثير القراءة له والنظر فيه كما كان الألمانيون جميعاً مشغوفين بالآداب الفرنسية في ذلك العصر وكما أني لا أشك في أن هناك شبهاً قوياً بين آلام فرتر وكثير من الآثار الأدبية لجان جاك روسو فلست أشك في أن هناك شبهاً قوياً بين فوست وبين كثير من الآثار الأدبية لفلتير وربما كان من الحق الذي لا شك فيه أن جوته إنما هو استمرار لسخرية فولتير ولكن فولتير كان يسخر في ظرف وخفة ورشاقة كما يسخر الفرنسيون بينما كان جوته يسخر في مرارة وعنف وجد كما يستطيع أن يسخر الألمان؛ ولم يكن فولتير يبتغي شيئاً وراء الشك والسخرية وكان جوته يبتغي مثلا أعلى وراء شكه وسخريته ولم يكن فولتير يتناول بسخريته شيئاً دون شيء ولم يكن يعفي

الحياة المعاصرة له من السخرية وكذلك كان جوته؛ سخر من كل شيء وأذاق معاصريه مرارة لا تعدلها مرارة..

تلخيص فوست يسير، فقد بدأ الشاعر بمحاكاة التوراة في سفر أيوب فأنشأ حواراً بين الله والشيطان حول حب الإنسان لله وقوته على الوفاء له؛ وانتهى هذا الحوار في فوست برهان بين الله والشيطان موضوعه هذا العالم الجليل الدكتور فوست الذي أخلص حبه لله والعلم. يزعم الشيطان أنه قادر على اغوائه ويأتي الله عليه ذلك وينظره فيندفع الشيطان إلى الدكتور فوست فيصادفه في ساعة سيئة من ساعات حياته قد سئم العلم ويئس منه، وعجز الدين عن أن يسليه ويمنحه ما كان يطمح إليه من الوقوف على سر الحياة والاطمئنان إليه. فما يزال يحاوره حتى ينتهي به إلى عهد بينهما..

يصبح الشيطان عبداً لفوست يتيح له كل ما يريد من يسير وعسير ويذيقه كل ما يشتهي من لذات الحياة على اختلافها جليلها وحقيرها على أن يكون فوست في آخر أمره، إذا لم يعجز الشيطان عن ارضائه، عبداً للشيطان ويتم العهد بين هذين المتجاورين ويندفع الشيطان بصاحبه في فنون من اللذات كثيرة منها الراقي ومنها المنحط وفيها آثام كثيرة وما يزال به حتى يغوي فتاة بريئة ويضطرها بهذا الإغواء إلى أن تقتل أمها وابنها وتسبب قتل أخيها ثم تضطر إلى السجن ثم إلى الموت كل ذلك في ظروف كثيرة طويلة تتخللها أشياء أضيفت إليها إضافة وحشرت فيها حشراً ليس بينها وبينه صلة إلا الجوار فإذا انتهيت إلى آخر هذه القصة رأيت الشيطان قد أنفق ما يستطيع لإرضاء فوست فوفق كثيراً، ولكنه على كل حال لم يظفر بنفس فوست لأن فوست مازال على كلفه باللذة وتهالكه عليها مزدرياً لكل ما ظفر به طامحاً إلى شيء آخر عجز الشيطان عن أن يوصله إليه وهو الذي يحاول أن يطلبه ويظفر به في فوست الثاني..

هذه خلاصة القصة وهي التي صيغت عليها القصص التمثيلية والغنائية ولكن جوهرها ليس في هذا الإطار الذي صورته لك الآن وإنما هو فيما يحيط به هذا الإطار من دقائق الحوار بين الله والشيطان ثم بين فوست وتلميذه ثم بين فوست والشيطان ثم بين الشيطان والناس. في هذا الحوار كنوز من النقد والفلسفة والأدب لا سبيل إلى تقويمها ولا إلى تحليلها ولا إلى الإحاطة بها ولكنها كفيلة بأن تعطيك من جوته صورة رجل عظيم قد عظم حتى كانت عظمته أشبه سيء بالتمرد ورق حتى كانت رقته أشبه شيء بدعة الملائكة. ومن غريب الأمر إنك تجد جوته ممثلا أصدق تمثيل في ضعف الدكتور فوست وقوته وفي ضعف مرجريت وقوتها كما إنك تجده ممثلا أصدق تمثيل في تمرد الشيطان وكبريائه وأي غرابة في هذا أليس جوته و الذي ابتكر فوست ومرجريت والشيطان؟

تجد في هذه القصة صورة صادقة دقيقة لحياة العالم الأوروبي قبيل الثورة الفرنسية وإبانها أي في عصر الانتقال الذي وثب بأوروبا الوثبة الأخيرة من حياة القرون الوسطى إلى حياة العصر الحديث ويقال إن فوست الثاني يصور المثل الأعلى الذي يسمو إليه الرجل الفيلسوف وكيف يسمو إليه وكيف يظفر به. وقد تعمدت أن آتى بلفظ الشك هذا لأن الذين فهموا فوست الثاني قليلون وقد أسأل نفسي أحياناً هل فهمه جوته.. ولعل أصدق حكم على هذه القصة التي أقدمها الآن إلى القراء حكم مدام دي استال عليها حين قالت:

"إن هذه القصة تضطرك إلى أن تفكر في كل شيء وإلى أن تفكر في أمر آخر فوق كل شيء".

طه حسين

فاتحة[1]

(في السماء)

الرب، جموع الملائكة؛ وبعد قليل يظهر إبليس يتقدم الملائكة الثلاثة المقربون.

اسرافيل :

الشمس تغني[2] كدأبها من الأزل، منافسة في النشيد أخواتها الأجرام. وتدور دورتها التي رسمت لها بخطى كالرعد القاصف.

ألا إن منظرها ليبعث القوة ويثير الهمة في نفوس الملائكة، وإن لم يكن بينهم من يفهم كنهها ويدرك سرها.

إن هذه البدائع السامية، التي يقصر عنها الإدراك، لم تزل ذات روعة وبهاء كما كانت في يومها الأول.

---

(1) هذه الفاتحة في السماء بمثابة مقدمة الكتاب أراد المؤلف أن يبين فيها المحور الذي تدور حوله حوادث القمة، وأن يضع أمام القارئ صورة لقوتي الخير والشر وتأثر الإنسان بكل منهما. ولهذا ذكر ذلك الحوار بين الرب وابليس.

وقد اختار (غوتيه) أن يجعل هذه الفاتحة على نسق كتاب أيوب كما ورد في التوراة حيث الإخلاص لا يلبث أن يزول لو أن ارب ابتلى أيوب بفقد ماله وولده إلخ. فعلى هذا النسق كتب غوتيه هذه الفاتحة.

ومع ذلك فقد تناول بعض الكتاب هذا الفصل من "فاوست" بالنقد، زاعمين أنه من السفه وقلة الاحترام للدين "والتجديف" بمكان. والحقيقة أن غوتيه كان أبعد الناس عن التجديف والاستهزاء بالدين؛ وإنما حمله على كتابه هذا المنظر في هذا الشكل القصة التي بنى عليها كتابه والتي اقتبسها عن كتاب القرون الوسطى والتي منها تلك المراهنة بين الرب وابليس. وفي الكتاب أشياء أخرى خلوقة للمادة سيراها القارئ.

(2) إشارة إلى ما يقال من أن للإجرام السماوية في دورانها أصواتاً كالموسيقى. وقد ذكر شيء من هذا في كتاب أيوب (إصحاح ٢٨) "ونجوم الصباح غنت معاً".

جبريل :

وهذه الأرض ذات الجمال الرائع دائبة في الدوران بسرعة يقصر عن تصورها الوهم.. يتعاقب عليها النور الساطع والظلام الحالك الرهيب. والبحر اللجي يرغي ويزيد؛ ويندفع تياره إلى سفح الصخور.

والبر والبحر كلاهما يدوران دورة الكواكب الأبدية السريعة.

ميكائيل :

والعواصف تتبارى في الدوى والزئير؛ مندفعة من البحر إلى البر، ومن البر إلى البحر. وتكون حول الأرض نطاقاً هائلاً من القوة والصولة. والبروق المتقدة تكتسح وتدمر ما يعترضها في سبيلها. وعلى أثرها تدوي الرعود وتنقض الصواعق.

ومع هذا كله فإن رسلك أيها المولى الجليل يمجدون يومك الهادئ المطمئن ويقدسون هدوءه وصفاءه.

الثلاثة معاً:

إن هذا المنظر ليبعث القوة ويثير الهمة في نفوس الملائكة وأن قصرت أفكارهم عن إدراك أسرارك الخفية.

وإن ما أبدعته في العالم لم يزل ملؤه الروعة والبهاء كما كان في اليوم الأول.

إبليس:

أما وقد تنازلت أيها المولى الجليل فدنوت منا مرة أخرى، وسألتنا عن حالنا، وقد عودتني من قبل أنك تسر لرؤيتي. فلهذا تراني أنا أيضاً واقفاً وسط العبيد.

سامح يا مولاي واصفح! فأنى عاجز عن الإتيان بمثل تلك الكلمات الراقية، وأن جر على هذا العجز سخرية الجميع واستهزاءهم.

ولعمري لو أنني جاريتهم فأبديت شعوراً أو عاطفة لأضحكك صدور مثل هذا مني؛ لولا أنك غادرت عادة الضحك.

أنا لا أعرف كيف أتحدث عن الشمس ولا عن الأجرام العلوية.

وإنما أعرف بني الإنسان وكيف يعذب بعضهم بعضاً. إن ابن آدم– إله الأرض الصغير– لم يزل على طوره القديم لم يتغير. وهو اليوم عجيب غريب كما كان في اليوم الأول[1].

وإن حالة قد تحسن وعيشة قد يطيب؛ لولا أنك منحته ذلك الشعاع من النور السماوي، الذي سماه العقل. واتخذ منه آلة يتوسل بها لأن يكون أكثر بهيمية من البهائم، وأكثر وحشية من الوحوش.

وإني لا شبهه– لو يسمح لي مولاي– بتلك الجرادة الطويلة الساقين التي ما تنفعك تطير واثبة، وتثب طائرة، وتغني أنشودتها القديمة البالية وسط الحشائش و يا ليته بقى دائما وسط الحشائش والعشاب، ولم يذهب إلى كل بؤرة رجس وقذر فيدس بأنفه وسطها[2].

الرب :

هل بقي شيء لم تقله؟ مالك لا تجئ إلا لتتهم؛ أما ترى مدى الدهر في الأرض شيئاً حسناً؟

---

(1) يريد ابليس بتكرار عبارة "كما كان في اليوم" شيئاً من التهكم مما قاله الملائكة قبلا.

(2) وجه الشبه هنا بين الإنسان وتلك الجرادة أنه يريد التحليق والطيران فلا يستطيع فيكتفي بالوثوب بين الحشائش. ثم يلهية انغماسه الأقذار عن التفكير في الطيران.

إبليس :

كلا أيها المولى! إني لا أرى هناك إلا كل قبيح، كما هي الحال منذ القدم. وإني لأشفق على بني الإنسان حين أرى حياتهم الملآى بالآلام؛ حتى لقد رثيت أنا للمساكين فلا أريد أن أعذبهم.

الرب :

أتعرف فاوست؟

إبليس :

الدكتور؟

الرب:

خادمي

إبليس:

أجل. وأنه ليسلك في خدمتك طرقاً غريبة. أن ذلك الأبلة قد بات لا يرى لنفسه في الأرض قوتاً أو شراباً؛ وذهبت به أحلامه وأوهامه إلى مدى بعيد. وأخاله مدركا سخفه وجنونه بعض الإدراك. وتراه اليوم يتطلب زهر النجوم من السماء ويريد ظان تخرج له الأرض أقصى ما يشتهي ويحب؛ وبعد هذا كله فلا شيء في العالم يشفي أوام نفسه الحائمة، ويطفئ غليل صدره الهائج.

الرب:

لئن كان يعبدني اليوم وهو مشتت الفكر موزع الفؤاد، فلسوف أهديه سبيل الرشاد بعد حين. والزارع يعلم حين يرى الشجرة قد أورقت أن سرعان ما تزدان غصونها بالأزهار والثمار.

إبليس :

هل تراهنني على أن هذا العبد سابق من طاعتك؟

لا أطلب منك إلا أن تأذن لي كي أجره برفق إلى طريقي وسنتي.

الرب:

لا أمنعك عن هذا مادام على قيد الحياة.

على أن المرء قد تزل به القدم إذ يجد في السعي.

إبليس:

لك الشكر على هذا والحمد. فأنا لا أحب الموتى ولم يكن لي فيهم يوماً ما أي مأرب. وأحب إلى تلك الوجوه الناضرة التي يتدفق منها ماء الحياة. أما رمم الموتى فلا أصلح لها ولا تصلح لي. وأنا في هذا أشبه الهرة التي تأنف أن تأكل الفأرة ميته وتأبى إلا أن تصيدها حية.

الرب :

لا ضير! إني منحتك سؤلك وخليت بينك وبينه. حاول أن استطعت أن تحول تلك الروح عن ينبوعها الأسمى[1] واجذبها أن قدرت إلى حضيضك ثم لتقف ذليلاً صاغراً حين يضطرك فشلك وعجزك إلى الاعتراف بأن الرجل الصالح- مهما أظلمت بصيرته- لا يلبث أن يهتدي إلى السبيل الارشد والطريق الأقوم.

([1]) يقصد غوتيه بالينبوع الأسمى الله. ولعل في هذه الجملة وما يليها المحور الذي يدور عليه الكتاب.

إبليس :

حسن جدا! إن هذا الأمر لن يدوم طويلاً. ولست أخشى أن اخسر الرهان. ومتى أدركت غايتي فأذن لي بأن أسر وأفتخر بما أحرزت من النصر.

ولسوف يأكل التراب بلذة وشهية كما تفعل الحية الشهيرة؛ التي تجمعني وأياها أواصر القرابة[1].

الرب :

إن أدركت غايتك. فافعل ما تشاء.

إنني ما كرهت يوما ما من كان مثلك. ومن بين تلك الأرواح التي دأبها الإنكار والكفران أرى أقلها ثقلا على نفسي ذلك المازح الساخر[2].

أني رأيت الإنسان سرعان ما تخمد همته وتفتر عزيمته ويخلد إلى الدعة والراحة ولهذا أرسلت وراءه قرينا يستفزه ويستثيره، ولا ينفك يعمل ويدأب كعادة الشياطين.

(للملائكة) وأنتم أيتها الأبناء الحقيقيون للآلهة. انعموا ما شئتم بهذا الحسن الغزير والجمال الرائع الأبدي.

ولتحطكم روح البركة والنماء؛ التي ما تزال تخلق وتنتج؛ بسياج بديع من الحب.

---

(1) تجمع ابليس والحية أواصر القرابة لنها هي التي ضللت حواء وآدم. وقوله أنها تأكل التراب إشارة إلى ما جاء في سفر التكوين، الاصحاح الثالث (١٤): "فقال الرب الالة للحية لأنك فعلت هذا معلونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية. على بطنك تسعين وترابا تأكلين كل أيام حياتك".

(2) الأرواح التي دأبها الإنكار هي الشياطين؛ وكان غوتيه يمثل ابليس بأنه الشيطان الذي يجمع إلى الإنكار والكفران (Verneinung) شيئا من المجون والفكاهة والسخرية.

وأما هذه الظواهر الزائلة التي تبدو لكم فلتستنبطوا منها الحقائق الثابتة والأفكار الخالدة[1].

(تغلق السماء ويتفرق الملائكة ويبقى إبليس)

إبليس :

يحلو لي أن أرى المولى القديم من حين إلى حين. وسأبقى دائماً حذرا كي لا يحدث بيننا خصام.

ولعمرى أنه لجميل جداً من سيد عظيم أن يتحدث إلى الشيطان نفسه بمثل هذا الأسلوب البشري.

(1) أي أن الظواهر كلها زائلة وإنما الأبدي الدائم هو الأفكار الكامنة وراء تلك الظواهر

(١)

في الليل

(فاوست جالس على كرسيه أمام مكتبه، قلقلا في غرفة ضيقة مرتفعة السقف)

فاوست

أجهدت نفسي في دراسة الفلسفة والشريعة والطب؛ وتعمقت أيضاً– ويا للحسرة!– في دراسة علوم الدين[١]، بجد لا يعتوره فتور وهمة لا تعرف الكلال. ثم أراني– أنا البليد المسكين– بعد هذا كله لم أتقدم شبراً ولم أخط نحو العرفان خطوة.

سميت الأستاذ والدكتور؛ وقضيت زهاء عشر سنوات وسط تلاميذي أخادعهم وأغرر بهم وأذهب بهم ذات اليمين وذات الشمال. ثم أرانا بعد هذا كله لم نزل عاجزين عن أن ندرك أمراً أو أن نلم بشيء.. لا ريب أن احترقت مهجتي أسى وكمداً على تعب ضائع وعناء لم يكن تحته من طائل.

لا أنكر أني بت أكثر ذكاء من سائر الحمقى: كالدكاترة والأساتذة والفقهاء والقسيسين. فلست ممن يملأ قلبه الوساوس والأوهام. ولا يزعجني ذكر الجحيم والأبالسة والشياطين.. بيد أن هذه المنزلة التي بلغتها هي التي جرت على الويل والشقاء وسلبتني كل سرور وصفاء. فأصبحت وما تعلمت شيئاً نافعاً، ولا حصلت علماً أفيد به تلاميذي وأصلح به بني الإنسان

---

[١] يتحسر فاوست على تعمقه في دراسة علوم الدين (Theologie) لأن هذا سلبه راحة الإيمان. وسيعود إلى ذكر هذا في نهاية المنظر.

وأرشدهم به إلى سبل الخير.. وقد صرت إلى ما أنا فيه من الفاقة، بحيث لا مال لي ولا نشب؛ ولا جاهاً أحرزت ولا سعادة.. إن هذا العيش لمما تعافه الكلاب لعمري وتأباه!–

لهذا قد انصرفت إلى ممارسة السحر! لعلي بمخاطبة الأرواح؛ وبما لها من الصولة والقوة أحيط علماً بكثير من الأسرار؛ وأصبح في غنى عن اجهاد نفسي هذا الاجهاد المر، في ذكر أمور أجهلها الجهل كله.. فأغدو وقد أدركت أي شيء خفى يمسك هذا العالم بعضه إلى بعض، وأبصرت جميع القوى المؤثرة؛ والجراثيم المنتشرة، بدلا من أن أبقى هنا أتشدق بالألفاظ الجوفاء. وأعرف ما لا أعرف.

أيها البدر المنير! ليت هذه آخر مرة تراني فيها أعاني هذا الألم المبرح! لقد طالما جلست إلى هذا المكتب أرعاك في منتصف ليال عديدة، ولكم أنرت لي أيها الصديق الحزين صحائفي وكتبي!

آه! ليتني كنت فوق قمم الجبال، أمشي مستضيئاً بنورك المحبوب؛ ثم أسبح مع الأرواح حول الكهوف والغيران، طائراً وسط نورك اللطيف فوق المراعي والمروج! فأطرح عني ما أكسبتني هذه العلوم من ألم وعذاب، وأطهر نفسي بقطرات الندى المتساقطة من ضيائك!

ويلي! ألا أزال حليف هذا السجن، أسيراً في غرفة رطبة لعينة لا يدخل إليها إلا القليل من نور الشمس المحبوب. يحجبه عنها كل هذا الزجاج الملون. ويملؤها إلى سقفها كثبان من الأسفار سلطت عليها الأرضة. وقد امتلأت أرجاؤها بالأنابيب والزجاجات والصناديق ومختلف الآلات.

بل وبما خلفه الآباء والأجداد من أثاث عتيق حقير!

هذه هي دنياك التي تعيش وسطها! فتباً لها من دنيا!

وبعد هذا كله تتساءل لماذا يضيق صدرك وينقبض فؤادك؟ ولماذا تحس دائماً ألماً خفياً مبهما قد نغص عليك العيش وسلبك لذة الحياة؟ وكيف لا وأنت ثاو وسط هذا الدخان والطين تحيط بك هذه العظام البالية؛ بدلاً من أن تكون وسط الطبيعة الحية، التي خلقها الله لينعم بها الإنسان؟

فاهرب الهرب من هذه البؤرة ولتنطلق في فسيح الأرض! وحسبك هذا الكتاب الثمين الممتلئ بالأسرار الذي سطرته بنان (نصطر اداموس) [١] رفيقاً ودليلاً يرشدك إلى مسرى النجوم ودورة الفلك. ولئن تلقيت العلم عن الطبيعة نفسها فسرعان ما تفيض نفسك قوة وهمة. وتدرك كيف تتخاطب الأرواح وتتحادث.. وهيهات أن تدرك فحوى هذه الرموز المقدسة[٢] أن قضيت حياتك هنا في تفكير جاف عقيم.

أيتها الأرواح إنك تسبحين حولي! أجيبيني إن كنت تسمعين صوتي!

(يفتح الكتاب فيقع بصره على الطلسم المسمى بطلسم العالم)

أي طرب وأية نشوة تسريان فجأة في جوارحي ومشاعري حين أنظر إلى هذا الرسم؟ إني أحس الشباب والحياة.. والسعادة القدسية تتقد وتلتهب في لحمي ودمي.

أكان رباً قادراً هذا الذي خط هذه الطلاسم التي سكنت ما في أعماق صدري من الغيظ والغضب وصلات قلبي المنكود بالسرور. وبما لها من قوة

([١]) نصطر اداموس أو ميشل دي نوتردام Michel de Notre Dame من علماء الهيئة في القرن السادس عشر وكان يعيش في فرنسا. وله مؤلفات ظهرت في أواسط ذلك القرن ملأها بالتنبؤات التي كان يستفد صحتها الكثيرون من معاصريه.

([٢]) الرموز المقدسة هي الطلاسم الموجودة في كتاب نصطر اداموس المزعوم.

خفية، وتأثير غامض مبهم، قد كشفت الغشاوة عن عيني فبت أشاهد قوى الطبيعة مائلة أمامي.

هل أنا إله؟

إن بصيرتي قد استنارت. انظر إلى هذه الرسوم الجليلة الواضحة فأرى بين يدي الطبيعة القادرة الفعالة؛ أحسبها بجسدي وروحي.

الآن تحققت صحة ما قاله ذلك الحكيم: "إن عالم الأرواح ليس بمغلق الأبواب. ولكن صدرك قد أغلق؛ وعقلك قد جمد.. فانهض أيها الطالب نشيطا فرحا؛ واغسل هذا الصدر الأرضي بنور الفجر المشرق"

(يتأمل الطلسم)

عجبا كيف انتظمت هذه الأجزاء جميعها؛ فكونت كلا منسقاً؛ حياة كل جزء متممة لحياة الأجزاء الأخرى. ومرتبطة بها الارتباط كله.. والرسل السماوية في صعود ونزول دائمين. يناول بعضها بعضا أباريق الذهب؛ سابحة في الفضاء، تنثر البركة ذات اليمين وذات الشمال.. وتهبط من السماء إلى الأرض فتجعل من سائر الكائنات منظومة منسقة منضدة[١].

ما أجل هذا المنظر!!.. لكنه- وأسفاه!-ليس إلا منظراً! وصورة تبدو لعيني! فمن لي بأن أبلغ أسبابك أيتها الطبيعة التي لا حد لها ولا نهاية؟ أين أنت أيتها الصدور؟.. يا ينابيع الحياة التي تستقى منها السماء والأرض؛ التي يتلهف إليها كل صدر أحرقه الظمأ ! إنك تفيضين وترويين. وأنا هنا أشتاقكولا سبيل

---

(١) هذه صورة العالم الكبير (ماكرو كوزموس) كما كان يصورها بعض الكتاب وأكثر الشراح يرى أننا يجب ألا ننظر إليها بأنها صورة كاملة أو أنها تمثل معتقد غوتيه نفسه وإنما تمثل ما يخطر لرجل كفاوست في حالة النفسية هذه.

إليك.

(يقلب صفحات الكتاب وهو متهيج متأثر فيقع عل الطلسم المسمى روح الأرض)

شتان بين تأثير هذه الصورة في نفسي وتأثير الأولى!

أي روح الأرض! إنك أقرب إلي وأدنى مني رحماً. هأنذا أشعر بأن قواي قد ازدادت؛ وجسمي سرت فيه الحمية. وأحس من البسالة والإقدام ما يدفع بي إلى خوض غمار الكون؛ فأنزل بالعالم الويل والثبور؛ أو أحمل إليه السعادة والنعيم.. ومن القدرة والباس ما أكافح به العواصف، وأقتحم الأمواج وهي ترغي وتزبد؛ وتحطم السفن، وتهلك الركب؛ دون أن أعرف للتردد والأحجام معنى.

أرى الضباب يتكاثف من حولي.. كاد نور القمر أن يختفي.. وهذا المصباح قد خبأ نوره.. ما لهذا البخار يتصاعد! وهذه الأشعة الحمراء قد أحاطت برأسي!.. كأن الرعب قد ملأ فضاء هذه الفرقة ثم انقض فاستحوذ علي! إني أشعر بك تسبح من حولي أيها الروح الذي ناجيته! والآن فاكشف عنك الحجب وابد لعيني.. إني أحس صدري يتمزق! وجميع جوارحي قد ثارت، متشوقة إلى شعور جديد واحساسات لا عهد لي بمثلها!

إني اشعر قلبي منجذب بأسره إليك.. أيها الروح! لابد لي أن أراك ولو كان في ذلك هلاكي.

(يمسك بالكتاب ويقرأ عزيمة الروح بشكل مبهم؛ فيندلع لهيب أحمر ويبدو

روح الأرض[1] في وسطه).

الروح:

من يناديني؟

فاوست :

(مشيحا بوجهه) منظر ترتعد له الفرائص!

الروح :

إنك دعوتني بقوة؛ وجذبتني ببأس وعزم؛ وقد أطلت الامتصاص والارتضاع من مناهلي. والآن!

فاوست :

ويلي! لا أطيق رؤيتك!

الروح :

عجبا لك ! وتتشوق للقائي وسماع صوتي ورؤية وجهي.. وقد جذبني إلى هنا نداء منبعث من روحك ملؤه القوة والبأس. فأتيت وهأنذا أمامك.. أي رعب هائل قد استحوذ عليك يا من يزعم أنه فوق البشر. أين ذهب نداء تلك الروح؟ أين ذلك الصدر الذي استطاع أن يخلق بين جوانحه عالماً يعتز به ويزهى؟ ذلك الصدر الذي كان يهتز سروراً وطرباً وينتفخ بكبرياء طمعاً في محاكاتنا معشر الأرواح!

أين فاوست هذا الذي رن صدى صوته في أذني واندفع نحوي بكل ما أوتي

---

(1) نصح غوتيه لإحدى فرق التمثيل التي أرادت تمثيل "فاوست" أنت يكون ظهور روح الأرض على شكل وجه هائل بحيث يملأ جميع فراغ المسرح.

من قوة؟ أهو أنت الذي لم يكد يلامسه نفسي المتصاعد حتى أخذت فرائصه تضطرب وبات كالدورة المنكمشة فرقا ورعبا؟

فاوست :

أو أجبن أمامك أيتها الصورة من اللهب؟

أجل أنا هو! أنا فاوست؛ أنا نظيرك ومثيلك.

الروح :

في تيار الحياة المتدفق؛ وفي وسط عواصف العمل والسعي؛ أنا أبداً أطفوا هنا وهناك؛ وأصبح ذات اليمين الشمال.

مولد ومماتٌ!

بحر خضم أبدي!

نسيج دائم التغير والتبدل.

حياة دائمة التوقد والالتهاب.

هكذا أشتغل بجد وبأس؛ على منوال الدهر الهائل، لكي أنسج بيدي الثوب الحي للألوهية(١).

فاوست :

أيها الروح الجمة مشاغلة؛ الدائب السعي في أنحاء العالم، إني لأشعر أني قريب منك؛ شديد الشبه بك.

---

(١) ليس بواضح تماماً ما عناه غوتيه بروح الأرض. والدور الذي يلعبه في العالم. وإنما نذكر أن غوتيه كان حاوليا. ولعله يقصد بالثوب الحي للألوهية. جميع الكائنات التي هي بمثابة الثوب تحل فيه الألوهية وتتجلى.

الروح: إنك تشبه ذلك الروح الذي يدركه فكرك؛ أما أنا فشتان بيني وبينك.

(يختفي)

فاوست: (وقد صعق)

لست شبيها بك؛ إذن فشبيه بمن؟

أنا الذي برئت على صورته الاله، ألا أشبهك أنت؟

(يطرق الباب)

أواه! أعرف هذا الطارق.. إنه تلميذي..

الآن يجيء هذا الجلف الجاف فينغص على مناجاتي للأرواح؛ ويقضي على أبهى ساعات عمري وأسعدها.

(يدخل واغتر بلباس النوم وفي يده مصباح فيلتفت إليه فاوست مغضبا)

واغتر :

عفوا ومعذرة! سمعتك تنشد شيئاً بفصاحة وبيان؛ فما شككت في أنك تطالع مأساة إغريقية. وبودي أن أحصل القليل من هذا الفن، فله زماننا هذا شأن جليل. وكثيرا ما سمعت الناس يقولون أنه خليق بالقسيس أن يتعلم فصاحة الإلقاء وإجادة الإنشاد من الممثلين.

فاوست :

أجل! خصوصا إن كان القسيس نفسه ممثلا ماهرا كما هي الحال في بعض الأحايين.

واغتر :

إذا كان مقضبا على طالب العلم أن يلتزم قاعة درسه وألا يرى العالم حتى في يوم عيد، اللهم إلا على بعد عظيم. ترى كيف يتاح لمثله إذن أن يعظ الناس ويهديهم؟

فاوست :

لن تدرك هذه الغاية ما لم تكن الهداية قد ملأت قلبك، ففاضت بها روحك، فملكت قلوب سامعيك واستحوذت على مشاعرهم وكان لها عليهم سلطان لا يقاوم.

إنك تجلس وكل همك أن تلتقط الأجزاء المتناثرة فتلصق بعضها إلى بعض وتصنع طعاما من بقايا موائد الآخرين. ولا تزال تنفخ في الرماد المتراكم حتى توقد ناراً ضئيلة.. مثل هذا الشيء قد يستثير اعجاب القردة والصبيان، إن كان هذا ما تتوق إليه نفسك، ولكن هيهات أن تستطيع تحريك القلوب وإثارة الوجدان ما لم تستمد القوة من قلبك ووجدانك.

واغتر :

إن حسن الإلقاء هو سر نجاح الخطيب.. هذا أمر أحسه جيداً وإن كان بعيداً عني البعيد كله.

فاوست :

أسلك بنفسك السبيل القويم؛ ولا تك مثل مضحكي القصور؛ كثيرة ضوضاؤهم؛ خاوية عقولهم. وأخلق بالمرء إذا أوتى عقلا وفطنه أن يبلغ ما يشتهي؛ من غير حاجة إلى التعمل والتكلف.. ولعمري لئن كان لديك أمر خطير تريد أن تقوله فقيم السعي وراء الألفاظ والعبارات؟ إن خطبكم الرنانة

الخلابة التي تقدمون فيها للعالم سخافات مزوقة منمقة هي أشبه شيء بريح الخريف الباردة يدوي صداها في أوراق الشجر الجافة المتناثرة، دون أن يكون فيها ما يثير الهمة أو يرقد الحمية في النفوس.

واغنر:

رباه! ما أطول العلم؛ وما أقصر العمر! لطالما ملأت رأسي وصدري المخاوف على تلك الأبحاث العلمية التي أكابد في تحصيلها كل عناء، خشية أن توافي المرء منيته قبل أن يبلغ من العلم مأربه.. ما كفى المرء أن يعاني الشدائد الجملة في إحراز تلك الوسائل[١] التي لابد منها للوصول إلى الينبوع الأسنى. فلا يكاد يبلغ منتصف الطريق حتى يقضي المسكين نحبه.

فاوست:

وهل تحسب الصحائف والأوراق هي الينبوع الأقدس الذي تكفي شربة منه لإطفاء الظمأ مدى الدهر إن غليلك لن يشفى، وظمأك لن يروى، ما لم يفض الينبوع من صدرك، ويتفجر من أعماق نفسك.

واغنر:

عفواً أيها الأستاذ! إنها لسعادة كبرى أن تقرأ كتب المتقدمين ونشاهد روح الأعصر الخالية ماثلة لأعيننا. فنطالع الآراء التي أدلى بها الحكماء في مختلف الأزمنة. ثم كيف ارتقينا نحن بعد ذلك إلى أسمى المراتب.

فاوست:

أجل لعمري! لقد ارتقيم حتى بلغتم السماء!

---

(١) يريد بالوسائل الكتب والأسفار التي لابد من مطالعتها قبل الوصول إلى مرتبة سامية في العلم وهنا يبدأ حوار بين الأستاذ وتلميذه عن أهمية الكتب وقيمتها.

إن الأعصر الخالية أيها الصديق كتاب مغلق عليه سبعة خواتم. وما تسميه أنت روح العصور السالفة ليس لعمرك سوى روحك أنت انطبعت فيها صورة لتلكل العصور صورة مشوهة محزنة؛ تألم العين من مجرد مرآها. لأنها ليست و يا للأسف سوى حثالة قدرة أو سقط متاع لا غناء فيه.

وإن أقصى ما تبلغونه من تصوير العصر القديمة، أن تأتونا بقصة خرافية، ملأي بالحكم الجوفاء التي تصلح لأن يرددها الأطفال أو ترددها اللعب الخشبية التي يلعب بها في الأسواق[1].

واغتر :

لكن هنالك مسائل هامة، كالعالم وقلب الإنسان وروحه أشياء يود كل امرئ لو أدرك كنهها بعض الإدراك.

فاوست :

أي ما تسمونه أنتم إدراكا!!

ومن ذا الذي يجرؤ أن يسمى كل شيء باسمه الصحيح؟ إن القليلين الذين وفقوا لفهم أسرار الكون وبلغت بهم البلاهة أن أباحوا بمكنونات صدورهم للعامة والغوغاء؛ كان جزاؤهم أن قتلوا أو صلبوا أو أحرقوا.والآن أيها الصديق لقد مضى من الليل شطر كبير. ويجب أن نفترق.

واغتر:

كان بودي أن أبقى ساهراً أحادثك هذا الحديث الممتلئ علماً وحكمة. وعلى كل حال فغداً أول أيام عيد الفصح. ولعلك تأذن لي من حين لآخر أن

---

(1) في القرن السابع عشر شاعت في أوروبا عادة تمثيل قطع مسرحية بواسطة لب خشبية. تجعل كأنها تمثل حادثا سياسيا خطيرا وتفوه بألفاظ وحكم وخطب جوفاء.

أسألك ما ليس لي به علم.. لقد أكببت على الدرس والتحصيل بجد وعزم. ولئن كنت قد علمت الشيء الكثير؛ فبودي لو أحطت بكل شيء علماً.

(يخرج)

فاوست : (وحده)

يا عجباً لهذا المخلوق! كيف لا تدركه السآمة ولا يصل إلى قلبه القنوط! أبداً يجد وراء كل ما هو رث بالٍ فيتشبث بأهدابه، ولا يزال يحفر في الصخر باحثاً عن الكنوز المدفونة. فإن لقى بعد الكد والعناء دودة حقيرة عدها فوزاً وغنيمة. أكان يليق أن مثل هذا الصوت الآدمي يرن في أرجاء هذه الغرفة التي تملؤها الأرواح؟

لكني في هذه المرة أشكرك وأن كنت أحقر من دب على أديم الثري. فقد انتشلتني من وهدة اليأس الأليم الذي كاد أن يذهب بلبي وحسي. إن هذا المشهد الهائل الذي شهدته قد تضاءلت أمامه نفسي وبت لا أراني بجانبه سوى قزم حقير.

أنا الذي برئت على صورة الله.. وغدوت أحب نفسي قد ارتقيت حتى اقتربت من مرآة الحقيقة الأبدية. وبت أنعم وأمرح في ضياء السموات اللامع وصفائها الخالص. ولم أعد أحسب نفسي بشرياً سليل الطين. بل أصبحت أراني ملكا بل أسمى من الملك.. قادراً– بمحض قوتي وصولتي– على أن أسرى في عروق الطبيعة سريان الدم. وأتمتع بحياة الالهة بما لي من قدرة على الخلق والإبداع.

هكذا أسأت تقدير نفسي وهكذا حلق بي الغرور، والآن وقد زالت سكرتي فأي حسرة تعروني وأي كمد يحرق فؤادي! كلمة فاه بها ذلك الروح

الهائل قد هوت بي إلى الحضيض؛ كأنما انقضت على الصواعق.

***

أجل! ليس لي أن أقيس نفسي بك أيها الروح أو أن أدنو من مقامك

أيها الروح الجليل! ما لي قدرت على مناداتك وعجزت عن استبقائك!

تلك اللحظة القدسية التي شاهدتك فيها أحسست نفسي حقيراً بمقارنتي بك، عظيما باقترابي منك لقد دفعتني عنك بغلظة وقسوة فهويت إلى الحضيض ، حي أشاطر بني الإنسان عيشهم الأنكد، ومصيرهم الغامض المبهم.

أين لي من يرشدني ويهديني؟ وإني لي أن أعرف ما آتى وما أتجنب؟ وهل نافعي أن أطيع ذلك الدافع وأجيب ذلك النداء؟(١).

يا ويلاه! إن المصائب والكوارث ليست وحدها العائق الذي يعترضنا في الحياة، بل أن أعمالنا وجهودنا نفسها كثيرا ما تكون حربا علينا.

إن المثل العليا التي تتصورها النفس سرعان ما يذهب بحسنها ما يغشاها من العناصر الغريبة.

ولقد يتاح لنا في الحياة أن نصل إلى ما هو حسن فترضى بما بلغنا ونحسب السعى وراء ما هو أحسن وهماً باطلا وتعباً ضائعاً(٢).

إن أسمى العواطف وأرقى المشاعر التي ترفع النفس وتعليها لا تلبث وسط عواصف الدهر المهلكة حتى تذوي وتذبل.

لقد كنت فيما مضى يسبح بي الخيال وتحلق طير آمالي في سماء الأبدية؛

---

(١) إشارة إلى ممارسة السحر

(٢) أي أن الحسن عدو الأحسن: فالمرء قد يستحسن شيئا كالمال مثلا. فينصرف إليه فيلهيه ذلك عن التفكير فيما هو أحسن.

والآن أصبحت أجتزئ من ذلك كله بمكان صغير، بعد أن تحطمت سعادتي المرة بعد المرة، ما بين الأعاصير المدمرة، والزوابع المهلكة.

لقد ثوى الهم في أعماق القلب وهو هنالك دائب يخلق للمرء آلامه الخفية.. ولا يقر له قرار حتى يذهب بالسرور ويقضي على الراحة متذرعاً إلى ذلك بكل وسيلة وسالكا لذلك كل سبيل فتارة يجعل من دورنا ومنازلنا، ومن زوجنا وولدنا مثاراً لأحزاننا؛ وطوراً يثير آلامنا من خشية النار المتقدة أو السيل الجارف أو الخنجر المرهف أو السم الزعاف وأننا لنرتعد فرقاً من ضربات لن تقع علينا. ونبكي حسرة على شيء لن يضيع منا أبداً.

أنا لا أشبه الآلهة! أعلم هذا الآن علم اليقين. إنما أشبه الدودة الحقيرة التي تزحف وسط التراب وتغتذى من التراب، حتى إذا داستها قدم عابر السبيل أوردتها حتفها وقبرتها في الثري. ففي التراب محياها، وفي التراب مثواها.

ولعمري أليس تراباً ما على هذه الرفاف العديدة من الأسفار التي ضاقت بها الغرفة وضاق بها صدري. وليست سوى سقط متاع ومجموع سخافات لا طائل تحتها.. عالم تمرح فيه العثاث وتضجر منه النفوس.

أهنا أبحث عن طلبتي وأنشد ما يعوزني؟ وماذا يجديني أن أقرأ في آلاف الكتب أن بني الإنسان ما برحوا في شقاء دائم في كل زمان ومكان. وإنه قد وجد في العالم من آن لآن رجل سعيد؟

وأنت أيتها الجمجمة! ما لك فاغرة فاك كأنما تضحكين مني؟ وهل تضحكين إلا لأن مخك مثل مخي فد دفعته الحيرة إلى البحث وراء النور. فألفى نفسه في ظلام حالك، وجد في طلب الحقيقة ثم باء بالخسران والضلال وأنت أيتها الآلات العديدة. إنك تسخرين منى ولا ريبّ ما أكثر ما فيك من عجلات

ودوائر وشكول منوعة غريبة. وكان أجدر بك وقد وقفت لدي الباب الموصد، أن تكوني مفتاحاً أستعين به على تبين ما وراء تلك الأبواب. لكنك عاجزة حتى عن فتح واحد، برغم ما بك من دقة في الصنع والتركيب فيا للحسرة! إن الطبيعة ما برحت غامضة مظلمة حتى في رابعة النهار! على وجهها نقاب كثي فلا تسمح للأيدي أن تلمسه. وهي إذا أبت أن تجود بشيء من دفائن سرها، فهيهات أن تلبها اياه قسرا أو تأخذه عنوة.

وأنت أيتها المتعة التي لم تكن لي يوماً حاجة إليها. ما أنت هنا إلا لأن أبي كان يستخدمك، وينتفع بك. وكان أخلق بي أن أبدد هذا التراث القليل تبديداً، بدلاً من تركه هنا ليكون حرجا في صدري، وقذى في عيني. وما خير إرث خلفه الآباء والوراث في غنى عنه!

***

أرى بصري لا يتحول عن تلك الناحية! فهل لهذه الزجاجة الصغيرة قوة تجذب بها العيون؟ ولماذا أضاء فكري واستنار فجأة كأنما طلع على البدر وأنا وسط غابة مظلمة في ليلة حالكة؟

أحييك أيتها القارورة المنقطعة النظير! وأتناولك بكل حرمة وإجلال. وأمجد فيك ذكاء الإنسان وعلمه. لقد توى في باطنك عصير الرقاد.. رقاد الفرح والصفاء أنت خلاصة العناصر المرقدة، قد تجمعت فيك قوى الموت الزؤام. لقد آن لك أن تسدي غلى مولاك[1] يداً وتوليه جميلا.

أنظر إليك فتخف آلامي وألمك بيدي فيقل عنائي ونصبي إن تيار الحياة المتدفق قد أخذه ماؤه يفيض وكأنما يلقى بي في بحر علوي وكأني أبصر صفحته

([1]) أي فاوست نفسه. الذي صنع ذلك السم بيديه ويفكر الآن في الانتحار كوسيلة لنيل مآربه المبهمة.

اللجينية تلمع تحت قدمي! لقد طلع فجر يوم جديد، يجذبني إلى سأحل عالم جديد.

لكأني أرى مركبة تحلق بأجنحتها في الفضاء ميممة نحوى. وأحس الآن كأنما أسلك سبيلا جديدة إلى حيث اخترق الأثير، إلى عوالم وأجرام ملؤها الجد والنشاط، إلى تلك الحياة العلوية والسعادة القدسية فيا ليت شعري هل يتسنى لك ومازالت دودة حقيرة أن تبلغ ذلك الشأو البعيد؟

أجل لم يبق إلا أن تولي شمس هذا العالم ظهرك بعزم ثابت! لتكن لديك الجرأة على تحطيم تلك الأبواب التي يفرق من منظرها الجبناء. ويجزعون من اقتحامها.. لقد آن لك أن تثبت بالفعل– لا بالقول– أن كرامة الإنسان لن تجبن عن التطلع إلى مقام الآلهة. وإنك لن ترتعد فرقا أمام ذلك الغار المظلم الذي يتصوره الوهم ممتلئا بالويل والعذاب.. لتقتحم الطريق الذي يوصلك إليه ولو اعترضتك نيران الجحيم المتسعرة. أنها لخطوة هائلة وأخلق بك أن تخطوها بقلب طروب، وعزم لا ينثني. أجل ولو لم يكن من ورائها سوى العدم والفناء.

فتعال الآن أيها القدح البلوري اللامع! لقد طال ثواؤك في صندوقك العتيق. مرت السنون دون أن تخطر لي ببال. وكنت من قبل كثيرا ما تزين موائد الأجداد. تتناولك أنامل الثار بين فتحمل السرور والبشر إلى القلوب الحزينة والوجوه العابسة. أني أسرح الطرف فيما عليك من النقوش والصور، فأذكر الشرب حين كانوا يحاولون وصفها بالأوزان والقوافي. ثم يحتسون ما بك من الشراب جرعة واحدة أن هذا يثير ذكرى شباب وليالي صباي.. أما الليلة فأني لن أناولك أيها القدح إلى سواي. ولن أحاول وصف ما عليك من الصور الجميلة. وسأملؤك بهذا العصير الأقتم اللون، الذي سرعان ما يسكر منه المرء. شراب أعددته بيدي. واخترته وانتقته، فلا أعدل به الليلة بديلا. وهأنذا أتناول

منه جرعتي الأخيرة بقلب هادئ ونفس مطمئنة.

ولتكن هذه الشربة تحية للصباح الذي أوشكت شمسه أن تشرق.

(يرفع الكأس إلى ثغره ثم يتوقف إذ يسمع دق النواقيس وأناشيد العيد)

غناء الملكة:

قـــــام المســـــيح مـــــن الثـــــرى
ورقـــــا إلى أوج الســـــماء
طـــــوبي لهـــــم فليهنـــــأوا
وليطمـــــئن بنـــــوا الفنـــــاء
مـــــن كـــــاد أن يـــــودي بهـــــم
مـــــا ورثـــــوه مـــــن الشـــــقاء
ومـــــن الخطـــــايا المهلكـــــات
ودائهـــــا الـــــداء العيـــــاء

فاوست :

أي شيء هذا الصوت الشجي وتلك النغمات الرنانة التي انتزعت الكأس من فمي بقوة لا تقهر؟ أترن هذه النواقيس ايذانا بحلول عيد الفصح؟ وهل قامت تلك الجماعات لتغنى هذه الأناشيد التي تحمل إلى القلب السلوان والسرور. والتي تغنت بها الملائكة من قبل لدي قبر جليل[1] في جنح ليل بهيم.

---

(1) يقصد بالقبر قبر المسيح عليه السلام وعيد الفصح كما هو معلوم عيد للنصارى يحتفلون فيه بذكرى قيام السيد المسيح من قبره– بعد استشهاده– ثم صعوده إلى السماء. وفي بعض الكنائس كانت تنشد

فكانت ايذانا بعهد جديد.

نشيد النساء:

نحـــــــن كفنـــــــاء في هـــــــذا الحريـــــــر
وغلنـــــــــــاه بمســـــــــك وعبـــــــــير
وأنمنـــــــاه علـــــــى هـــــــذا الســـــــرير!

ثم بتنـــــا لا نـــــراه بيننـــــا!   أنـــت يارب قـــوي وقـــدير!

نشيد الملائكة:

بعـــــــث المســـــيح مـــــــن الثـــــــرى
فليـــــــــنم القلـــــــــب الحـــــــــزين!
طـــــــوبي لمـــــــن عـــــــانى الـــــــبلاء
وقرحـــــــــت منـــــــــه الجفـــــــــون
حـــــــتى انجلـــــــت عنـــــــه الكـــــــروب؛
وأي خطـــــــــــــب لا يهـــــــــــــون
ومـــــــــن الخطـــــــــايا المهلكـــــــــات

فاوست:

ماذا تبغين أيتها النغمات السماوية؛ التي جمعت بين الرقة واليأس، ماذا

الأناشيد على لسان الملائكة والنساء والحواريين. ويجب أن تتصور أن فاوست كان يسمع ترتيل هذه الأغاني في كنيسة غير بعيدة.

تبغين مني أنا حليف التراب؟ أولى لك أن يسمعك أناس لهم قلوب ترق وأفئدة تلين. أما أنا فقد طالما سمعت الرسالة ووعتها أذناي، ولكن يعوزني التصديق أن تلك المعجزات الرائعة هي وليدة الإيمان الراسخ(١). وهي أعز بناته عليه

أراني الآن قد هدأ ثائري ولم أعد قادراً على التطلع إلى تلك الأقطار العلوية التي يرن فيها صدى تلك الأنباء السارة أن هذه الأناشيد التي ألقتها من الصبي قدرتني إلى الحياة ودفعت بي إلى هذا العالم

إني لأذكر أيامي الخالية حين كنت أجلس ليالي الآحاد في هدوء وخشوع كأنما كانت تنصب على من السماء قبلات الحب العلوي وكنت أجد في دقات النواقيس نغمات ذات معنى دقيق، وفي تلاوة الصلوات لذة تفوق كل لذة.

وكثيرا ما كان يجيش بالنفس شوق لا أعرف له كنهها يدفع بي إلى المروج والغابات وهنالك كنت أصعد الزفرات وأسكب العبرات. حاسبا نفسي في عالم جليل ليس لغيري به عهد. والآن أصغى إلى هذه الأناشيد العذبة فتثور في نفسي ذكرى الشباب وكيف كنا تقضي عيد الربيع(٢) في لعب ومرح وصفاء لا يشوبه تكدير.

وهذه الذكرى تبعث في قلبي حنينا إلى عهد الطفولة والصبي. فيحول هذا بيني وبين تلك الخطوة الجدية التي كدت أخطوها

---

(١) يقول فارست: إن المعجزة بنت الإيمان: أي إنه متى كان الإيمان راسخا في قلب سهل عليه تصور المعجزات والتسليم بها... والمعجزة التي يشير إليها هي بالطبع قيام المسيح من قبره والأصل أن يقال أن الإيمان بن المعجزة: أي أن المرء يؤمن بعد أن يراها ولكن فاوست عكس المعنى.

(٢) أي عيد الفصح. لأنه يكون دائما في أول الربيع.

فأطربي روحي أيتها الأصوات الشجية؛ واملئ مسامعي بنغماتك العذبة! لقد أخذ الدمع ينهمل؛ وأراني قد رجعت إلى هذا العالم.

نشيد الحواريين :

قـــــد سمـــــا المــــــولى إلى أوج الســـــماء!

وارتقـــــــى نحـــــو العـــــــلا أي ارتقــــــاء!

وبقينـــــــــا نحـــــــــن في دار الفنـــــــــاء!

نحــن أنصــارك نبكــي فرحــاً لعــــلاء نلتهـــا أي عــــلاء

الملائكة :

صـــــــــعد المســـــــــيح إلى العـــــــــلا

مـــــــن بعـــــــد مـــــــا ســـــــكن الثـــــرى

طـــــــــوبي لكـــــــــم قـــــــــد آن لا

أغـــــــــــــلال أن تتكســـــــــــــرا!

ســـــــــيروا وجـــــــــدوا رافعـــــــين

لـــــــــواه في أعـــــــــلا الـــــــــذرا!

ولتنشـــــــــروا علـــــــــم الأخـــــــوة

والمحبـــــــــــــة في الـــــــــــــورى!

يكـــــــن الــــــــرئيس لكـــــــم ظهـــــــيراً

منجـــــــــــــداً ومــــــــــــــؤزراً

(٢)

أمام باب المدينة[١]

(الناس من سائر الطبقات يغدون ويروحون)

جماعة من العمال:

وما يدعونا للذهاب إلى هناك؟

جماعة أخرى:

لنذهب كلنا إلى حانة "الصياد"!

الجماعة الأولى:

أما نحن فميممون حانة "الطاحون"

عامل :

وما رأيك أن ذهبنا إلى حانة "النهر"

عامل ثان :

أرى أن الطريق إليها لا يلائمنا.

عامل ثالث :

وأنت ما تصنع الآن؟

(١) بعض الأوصاف المذكورة هنا منطبق تماما على مجينة (فرانكفورت) حيث ولد غوتيه ونشأ.

عامل رابع:

سأحذو حذو الجميع.

عامل خامس:

إذن أنصح لكم أن تذهبوا بنا إلى تلكم القرية. فهنالك نجد أطيب الصهباء وننازل اجمل الفتيات. ومن أراد المشاكلة والمنازلة. فهنالك الضراب والقتال من أحسن طراز

عامل آخر:

يا لك من غر أحمق لا يبرح مولعاً بالقتال والعراك. أما أنا فلا قرب الله بيني وبين ذلك المكان.

خادمة:

كلا! لابد لي أن أرجع إلى المدينة

خادمة ثانية:

يا بلهاء! أنا من غير شك سنجده هناك تحت أشجار الحور.

الأولى :

وماذا أستفيد من تلاقيكما؟ أنه سيأخذ بذراعك ويسير إلى جنبك ويرقص وأياك. فأي فائدة تعود على من سرورك بصديقك.

الثانية:

أنا واثقة أنه اليوم لا يأتي وحده. وسيكون معه لا ريب زميله ذو الشعر المجعد

تلميذ (لصاحبه):

أنظر ويحك إلى هاتين الفتاتين؛ كيف تجدان في السير! أسرع ولنلحق بهما. ولا تذهب هذه الفرصة من يدنا! أحب شيء في العالم إلى الجعة المرة، والتبغ الحامي، والغادة الحسناء عليها الحلى والحلل.

فتاة من بنات المدينة (لصاحبتها):

أنظر أين يذهب هذان الفتيان الملحيان! أليس من العار أن يتركا كرائم الفتيات، ويجريا خلف هاتين الخادمتين.

تلميذ ثان (للأول) :

ويلك لا تسرع! وانظر وراك تر هاتين الحوريتين، عليهما أجمل ثياب وزينة. إن أحداهما جارة لنا، وقلبي في هواها مدلة متيم. فهلم بنا إليهما! أنهما تسيران الهويني في حشمة وكمال ودلا. لكنهما رغم هذا ستسمحان لنا أن نصاحبهما.

التلميذ الأول :

لا يا أخي! أنا لا أحب من يتجنى على ويدلل. فأترك هاتين؛ وأسرع بنا قبل أن يفلت الصيد من يدنا. ولا تحتقر الخادمات، فإن اليد التي تمسك المكنة في يوم السبت هي أكثر الأيدي صلاحاً للتقبيل في يوم الأحد.

رجل من أعيان المدينة :

لا! لست راضياً عن العمدة الجديد، الذي ما ازداد في منصبه الحديث إلا عتوا وتكبرا.. وماذا جنت المدينة على يديه، وهذه حالها تسوء يوما بعد يوم؛ ناهيكم بكثرة الضرائب والاستبداد بالناس.

سائل (مغنياً) :

حييـــــــتم مـــــــن ســـــــادة أكـــــــابر
وســـــــيدات ذات حـــــــن باهـــــــر!
علـــــــيكم أبهـــــــى الحلـــــــى والحلـــــــل،
وفي محيـــــــاكم أرى نـــــــور الأمـــــــل!
هـــــــلا نظـــــــرتم لي بعـــــــين الشـــــــفقة
فهـــــــزكم فقـــــــري لبـــــــذل صـــــــدقه!
لا تتركـــــــوني عبثـــــــاً أغـــــــنى!
يا حبـــــــذا الغـــــــنى حـــــــين يغـــــــني!
مـــــــن يبـــــــذل المـــــــال يعـــــــش ســـــــعيداً
ممتعـــــــاً مـــــــوداً مجيـــــــدا
وأفـــــــاكم العيـــــــد الســـــــعيدّ فـــــــانعموا؛
وأنعمـــــــوا كـــــــي يســـــــتفيد المعـــــــدم.

رجل ثان من الأعيان :

أحب شيء إلي في أيام الآحاد والأعياد أن أتحدث عن الحرب الدائرة في بلاد الترك؛ بعيداً عن ديارنا وأوطاننا. هنالك تزهق النفوس وتتطاير الرءوس؛ وهنا اجلس مطلا من نافذة الحانة؛ فأحتسى قدحاً من الصهباء وأرى الزوارق تغدو في النهر وتروح. ثم أعود إلى داري في الماء فأرى السلم ضاربا أطنابه والسكون يشمل كل شيء. فأحمد الله على أن متعنا بالسلام؛ ووقانا غائلة الحروب.

ثالث من أهل المدينة :

صدقت أيها الجار، وهذا هو رأيي الذي أراه. دع العالم يناطح ويكافح؛ ويتضارب ويتحارب، وينقلب رأساً على عقب، ما دامت أحوالنا المنزلية تجري في مجراها القديم.

عجوزة ساحرة:

ياما أحيلي هاتين الغزالتين، وعليهما أحسن الحلى والحلل! أي قلب لا يتقيد في سلاسل هذا الحسن رويداً كل هذا الكبر والخيلاء. فأنا أعلم ما تريدان وما تنشدان. وسوف أبلغكما قصدكما وأهديكما السبيل.

الفتاة الأولى (لصاحبتها) :

يا اغاثا! تعالي أسرعي بنا فإني أخشى أن يرانا الناس ومعنا هذه العجوز: وإن كانت بسحرها العجيب قد رأتني وجه محبوبي في ليلة القديس أندريا[1] فكان كأنه ماثل أمامي.

الفتاة الثانية :

أما أنا فأرتنيه في قطعة من البلور؛ جنديا مليحا وسط جمع من رفقائه، وقد بحثت عنه في كل مكان فلم أهتد إليه.

جنود (يغنون) :

أســــد الثـــري لا نفـــزع! منـــــا الحمـــــام يـــــروع
فلنـــــا الرمـــــاح الشـــــرع ولنـــــا الأســــنة تلمـــــع

***

([1]) هي ليلة ٢٩ نوفمبر. ومن مزاعم العامة في بعض ممالك أوروبا أنه يتاح في تلك الليلة لكل فتاة أن ترى وجه الرجل الذي سيكون حبيبها.

كـــم قـــد هزمنـــا عســـكراً		فارتـــــد منحـــــل العـــــرى
مـــن كـــل مـــا فـــوق الثـــري		يــــدنو لنـــــا المتمنــــــع،

***

أي المعاقــــــــل لم تـــــــدن		أي الشـــــــدائد لم تلـــــــن
ولنـــــا عـــــزائم لم تهـــــن		منهـــــا الجبـــــال تصـــــدع

***

ولـــــنحن في بـــــوم الغـــــزل		هـــــدف لطعنـــــات المقـــــل
وعزيـــــــزنا للحـــــــب ذل		لســـــواه لســـــنا نخضـــــع

***

(يدخل فاوست وواغتر)

فاوست :

أقبل الربيع ببهائه وصفائه، وانجاب الجليد عن الجداول والأنهار، وأعشب الوادي؛ وأخصب المرعى. والشتاء قد أدركه الضعف والهرم فتراجع إلى قمم الجبال حيث يرسل لنا من آن لآن شؤبوباً من البر دفينئره فوق الحقول.

لكن سرعان ما تزل آثاره. لأن الشمس لا تترك جليداً إلا أذابته. وقد سرت الحياة إلى كل جسم فحيث سرت لا ترى إلا نباتاً ينمو؛ وشجراً يخضر؛ وغصناً يورق وإذا كانت الزهور لم تظهر بعد للعيون. فقد استعاضت عنها الطبيعة بهذه الجماهير من الناس عليهم أحاسن الثياب وغرائب الألوان.

قف فوق هذا المكان المرتفع! وانظروا وراك إلى المدينة؛ تر الناس خارجين من بابها المظلم الضخم؛ زمراً شتى وأفواجا إثر أفواج. وكلهم مفعم قلبه بالسرور يحتفلون باليوم الذي بعث فيه المسيح من مثواه. وهم لعمري كذلك ينشرون

اليوم من قبورهم: من عرفهم الرطبة ومنازلهم الضئيلة.. ومن القيود والأغلال التي تقيدهم بها أعمالهم وحرفهم.. ومن تلك الأزقة الضيقة ذات الجدران العالية والسقوف المرفوعة التي تنقبض لمرآها الصدور ومن بين تلك الكنائس القاتمة الحالكة من وسط هذا كله قد خرجوا اليوم لينعموا بالنور والضياء والشمس والهواء. فلا يكادون يخرجون من الباب حتى يتدفقوا إلى الحقول وينتشروا في البساتين.

أنظر كيف تشق الزوارق عباب النهر طولا وعرضاً! وهذا الزورق الأخير يكاد أن يغرق لكثرة من فيه وأن تلك الجبال القاصية قد لبست كذلك حللا ذات رونق وبهجة.

والآن أسمع صيحات الطرب التي يرددها أهل تلك القرية برغم بعدها عنا. فاليوم يوم نعيم مقيم لأبناء الشعب جميعا. فكبيرهم وصغيرهم في طرب دائم وصفو لا يخالطه كدر هنا أحسن نفسي من بني الإنسان وهنا يجمل بي أكون من بني الإنسان.

واغنر:

إن كل خطون أخطوها وأياك أيها الأستاذ وكل لحظة أقضيها في صحبتك شرف وفوز ومغنم. على أني ما كنت لأخرج وحدي في مثل هذا اليوم ، لأني أنفر من كل ما يفعله أولئك الغوغاء. وأكره غناءهم وصياحهم، ولهوهم ولعبهم. وما أراهم في رقصهم الكريه إلا كمن يتخبطه الشيطان من المس. وهم يسمون كل هذا سروراً وطرباً.

***

فلاحون تحت شجرة يرقصون وينشدون:

أســـرع الراعـــي إلى المـــرقص في أحســـن حلـــة،

وهنـــاك الجمـــع يلهـــو، تحـــت دوح قـــد أظلـــه

بـــــين رقـــــص وغنـــــاء، وصـــــياح وطـــــرب.

ترلالا؛ ترليلا!

ترلالا. ترلا!

يصـــدح القيثـــار والنـــاي، وقـــد زاد اللجـــب

***

اقبـــل الراعـــي إلـــيهم، فـــرأي أحـــدى الغـــواني؛

دفـــع الغـــادة بالمرفـــق مـــن غـــير تـــواني.

فانثنـــــت نحـــــو فتـــــانا، في دلال وغضـــــب.

ترلالا، ترليلا!

ترلالا، ترلا!

"يا فـــتى ويـــك! أمـــا فيـــك حيـــاة أو أدب؟"

***

ثم مالـــت نحـــوه مـــيلاً، وقـــد زال الجفـــاء؛

وســط جمــع كلهــم حلــف ســرور وصــفاء.

ملكـــتهم نشـــوة اللهـــو، وقـــد زال الوقـــار.

ترلالا، ترليلا

ترلالا، ترلا!

قـد حـلا اللهـو، ولـذ الـرقص؛ وانحـل العـذار.

***

وفتـــانا ســـار بالغـــادة في ركـــن أمـــين؛

وأحـــاط الخصـــر بالســـاعد، في رفـــق ولـــين.

لم يـــزل حـــتى أجابـــت، مـــا تمـــنى وأتابـــت.

ترلالا. ترليلا

ترلالا. ترلا!

مـــا أحيلـــى ســـاعة الحـــب إذا طالـــت وطابـــت!

فلاح مسن (مخاطباً فاوست) :

والله إنه لكرم منك أيها الأستاذ، أن تتنازل فتخرج في مثل هذا اليوم وتسير وسط هذا المزدحم من الناس؛ يحف بك الجلال، ويتلألأ على ناصيتك تاج العلم فهل تتنازل مرة أخرى، فتقبل منا هذه الكأس التي ملأناها بأحسن الصهباء ولتكن هذه الراح راوية للظمأ باعثة للفرح؛ تطيل في عمرك من السنين بقدر ما فيها من القطرات.

فاوست :

آخذ الكأس مسروراً وأشربها شاكراً. (يلتف حوله الناس)

الفلاح المسن :

لعمري إنه لجميل أن نراك وسطنا في هذا اليوم السعيد. ولقد والله كنت معنا كذلك في أيام المحنة. وكم من رجل في هذا المجتمع قد انتشله والدك من

مخالب للمنون. ودفع عنه عادية الوباء. حين نزل الطاعون بالأرض وأخذ يفتك بنا الفتك الذريع. وأنت إذ ذاك فتى يافع. فكنت تعود المرضى وتأسوا داءهم وتخفف بلاءهم ولقد قضى الكثير نحبه في تلك الأيام العصيبة. لكنك خرجت والحمد لله من وسط المهالك لم يمسسك سوء. لأن الله معين ومنقذ لمن ينصر الضعفاء العاجزين.

الجميع :

متعك الله بالصحة أيها السيد. وأبقاك للضعفاء نصيراً ومعيناً.

فاوست :

أحنوا رءوسكم خضوعاً وخشية بين يدي المولى القدير الذي يلهمنا كيف نتعاون والذي نستمد منه المعونة .

(يتمشى هو وواغتر)

واغتر:

ليت أي شعري أي سرور تحسه أيها الرجل الخطير حين ترى اجلال الناس لك وتكريمهم اياك. وسعيد لعمري من أناله علمه ومواهبه تلك المنزلة السامية. ألم تر كيف كانوا يشيرون إليك بالبنان. وقد أحدقوا بك احداق السوار. وكيف رغب اللاعب عن اللعب: والراقص عن الرقص. وانقطع الغناء وهدأت الضوضاء ووقف الناس صفاً صفاً مطأطئي رءوسهم يكادون أن يخروا أمامك راكعين كأنما أبصروا الخبز المقدس[1].

(1) الخبز المقدس الذي يمثل جسد السيد المسيح في عرف النصارى يحمل في المواكب الدينية الكبرى في البلاد الكاثوليكية فإذا رآه المتدينون ركعوا.

فاوست :

سر بنا نحو هذا الحجر؛ حتى نأخذ قسطنا من الراحة.

كثيراً ما كنت أجلس في هذا المكان، بعيداً عن العالم؛ امعن في التأمل والتفكير وأرهق النفس بالدعاء والصلاة والصيام. ولي إذ ذاك أمل وطيد وإيمان راسخ أني بهذا الابتهال والتضرع، والبكاء والخشوع، أستطيع أن أستعطف إله السموات وأحمله على أن يرفع عن الناس ذلك الوباء. والآن أسمع هتاف هذه الجماهير فيرن في مسمعي كأوجع اللوم والتأنيب. وليتك تستطيع أن تقرأ ما في أعماق نفسي. إذن لرأيت أن الوالد والولد لا يستحقان من هذا الثناء شيئاً.

كان أبي رجلا شريف النفس، كثير الأطراق، لا ينفك دائباً في التفكير في الطبيعة وفي حظائرها القدسية. بجد لا يعرف الوني وإخلاص لا تشوبه شائبة. فكان ينزوي في معمله الأسود المظلم. ومعه زمرة من خيرة تابعيه وطلبته. فيصبون العقاقير المتنافرة بعضها فوق بعض؛ بمقتضى تعاليم وقوانين يخطئها العد. يتناولون الأسد الأحمر[1]– ذلك العاشق الملتهب– فيزوجونه عصير الزنبقة البيضاء[1] الفاترة الطبع. ولا يزالون ينقلونهما معاً من دار عرس إلى دار عرس ومن لهيب مستعر إلى لهيب أشد منه؛ حتى إذا رأوا في الأنبوبة بعد كل هذا النصب والعناء ما يسمونه بالملكة الصغيرة[1] ذات الألوان البديعة كان ذاك هو البلسم الشافي والعلاج الناجح فإذا الناس تزهق أرواحهم. ولا يسأل سائل إن كان الدواء يشفي أم يقتل!

---

(1) الأسد الأحمر في لغة الكيميا القديمة هو مادة الذهب. والزنبقة البيضاء مادة الفضة. وتزويجهما أي مزجهما في الأنبوبة التي تكون بمثابة دار العرس، فإذا نجحت العملية وحدث التفاعل المطلوب نشأ من اتحاد المادتين ما يسمونه بالملكة الصغيرة: التي كانت تعد شفاء من كل داء. ووسيلة لتحويل المعادن الحقيرة إلى معدن الذهب.

فكنا بأدويتنا الجهنمية أشد فتكا بسكان هذه البلاد من الوباء والطاعون. ولكم ناولت بيميني الدواء للعليلين فكنت أرى أجسامهم تنحل وتذبل حتى تواري في جوف الثرى. والآن قدر لي أن أعيش، حتى أسمع الناس تصب على القتلة الفجار. أطيب المدح والثناء.

واغنر:

إني لأعجب طيف يحزنك هذا الأمر. أما كفى الرجل الشهم أن يمارس علم الأوائل بإخلاص قلب. محافظاً على قوانين العلم حريصاً عليها؟

ولئن كان مثلك في أيام صباه يجل والده أي إجلال؛ فيتلقى منه سور العلم والحكمة، حتى إذا كبرت رفعت لواء العلم وأعليت صرحه، فلا جرم إذا جاء ابنك من بعدك فبلغ فيه الغاية التي ليس وراءها غاية.

فاوست :

سعيد لعمري من يكون ذا أمل في النجاة، وهو غارق في بحر من الضلال؛ يغشاه موج من فوقه موج أن المرء ليجهل تلك الأمور التي هو في أشد الحاجة إليها. أما الذي يعلمه حق العلم فهو ما لا حاجة به إليه.. على أني لا أريد أن أكدر صفاء هذه الساعة الجميلة بالتفكير في مثل هذه الأمور الأليمة.

انظر إلى الشمس الآن ساعة الشفق وقد كست أشعتها المروج والدور! أنها تؤذن بالرواح وقد تصرم عمر النهار. وهي تجري إلى الغرب مجدة في السير كي تضيء عالما آخر. وتشرف على ربوع غير هذه الربوع فمن لي بجناحي طائر ذي بأس وقوة! فأرقى في الجو وأسرع العدو وراء الغزالة. ثم أنظر تحت قدمي فأرى العالم ساكتاً صامتاً. ينيره الشفق الأبدي. وأرى أعالي الجبال تلمع وتتوهج والأودية هادئة مطمئنة. وأشاهد الجداول تسيل كأنها اللجين مسكوباً فوقه

النضار هنالك تعجز الأطواد الشامخة عن أن تعوق مراي الذي يشبه مسرى الآلهة ولقد يبدو لعيني البحر الزخار المترامي الأطراف وقد لمعت فوقه أشعة الشمس الغاربة ثم أبصر ربه السماء وقد أوشكت أن تغيب عن عيني فأنتهب وراءها الخطى وأجد خلفها المسير، لأروى ظمأ نفسي من نورها الأبدي. وما أجل ذلك الموقف وما أبهاه: النهار قدامي، والليل خلفي ومن تحتي الماء ومن فوقي السماء.

حلم ما أعذبه وما ابهاه، وما أبعده مني وما أقصاه! فواحزني أن ليس للجسم كما للروح أجنحة يحلق بها في جو السماء على أن في طبع المرء طموحاً دائماً يدفعه إلى العلياء وإلى الأمام.. وكيف لا وهذه العنادل من فوقنا ترتل أناشيدها الشجية وهذى النسور تسبح فوق أطواد يكسوها دوح الصنوبر.. وتلك الكراكي ما برحت تحلق فوق السهول وتخترق البحار باحثة عن وكرها وموطنها.

واغنر:

لقد تعبث بفكري الأحلام حينا بعد حين. لكن مثل هذا الحلم لم يخطر لي الدهر ببال. فإني سرعان ما يعتريني الملل حين أدمن النظر إلى الغياض والمروج. وما أراني حسدت طير السماء يوما. أو تمنيت أن يكون لي أجنحتها وطيرانها. وشتان بين مثل هذا السرور وبين النشوة التي يحسها المرء حين يطالع مختلف الأسفار مقلبا الصفحة أثر الصفحة مثل هذا يجعل ليالي الشتاء حلوة جميلة. ويبعث الروح والحياة في كل جارحة من الجوارح وناهيك إذا حللت في العلم معضلة أو اهتديت إلى سر جديد.. فهناك تنزل إليك السموات السبع وتصبح كلها بين يديك.

فاوست :

انصرفت نفسك إلى لذة واحدة فليهنئك. إنك لا تعرف الأخرى! أما أنا فيكن جدي روحان، مشار بهما متباينة. وتحاول كل واحدة أن تبين عن الخرى: الأولى دنيوية دنية تلتصق بأديم هذا الثرى وتتعلق بأهداب هذا العالم. والأخرى طماحة طامعة، تندفع محلقة في السماء صاعدة إلى مسرى النجوم.

فياليت الأرواح السابحة في الهواء بين الأرض والسماء تهبط إلى فتنتشلني من وهدتي؛ وترقي بي إلى أقطار جديدة ذات ألوان بديعة. ويا ليت لي الآن "بساط سليمان" فأطير به في السماء وأسمو به إلى الكواكب. إذن لحرصت عليه أي حرص ولا عدلت به ملء الأرض ذهبا.

واغتر:

استحلفك! لا تستصرخ تلك الأرواح الشيطانية التي تملأ الجو وتسد الفضاء. أليست هي التي تبعث لنا من الشمال البرد القارس كاشرا لنا عن أنيابه الحادة وألسنته المندلعة؟ ومن الشرق ترسل لنا رياحا جافة تمتص دماءنا وتضيق أنفاسنا ومن الجنوب تسوق نحونا ريح الصحراء التي تشيب منا النواصي وتقرب منا الآجال. ومن الغرب تبعث لنا السيول الجارفة لكي تهلك لنا الحرث والنسل

تلك الأرواح الخبيثة لا تنصت لقولنا إلا لتغرنا وتخدعنا. وإن أطاعتنا فلكي تعد لنا النكبات وتكيد لنا في الخفاء وربما بدت لنا في شكل ملائكة السماء، باسمة ضاحكة؛ وقلبها ملؤة الحقد والضغينة. على أن وقت الرواح قد حان. وخيم الظلام وبرد الهواء، وأخذ الضباب ينتشر. وأنما يعرف المرء قيمة منزله ومأواه حين يدركه الظلام ويؤلمه البرد. لكني أراك قد أخذت منك الدهشة، واستولى عليك القلق، فأي شيء عراك وما الذي أبصرت في الشفق فسبب لك

هذه الحيرة؟

فاوست :

أترى ذلك الكلب الأسود الذي يصب ما بين الأشجار؟

واغنر:

أجل أراه، وقد رأيته من قبل فلم ألاحظ ما يدعو للاهتمام بأمره.

فاوست :

تأمله جيداً، أما تبصر فيه أمراً عجيباً.

واغنر:

ما أرى إلا كلباً يقفو أثر صاحبه شأن سائر الكلاب

فاوست :

أنظر كيف يدور حولنا كالحلزون مقترباً منا في كل دورة؛ وفي كل لحظة يدنو منا قليلاً قليلاً، وإن لم يخطئ ظني فإني أبصر على أثر هذا الكلب شعلات من النار تلهب.

واغنر:

أنا لا أشاهد إلا كلباً أسود ولعلك خدعتك عيناك.

فاوست :

يخيل لي أنه ينصب لنا الحبائل لكي يقتنصنا عاجلاً.

واغنر:

وأنا أراه يثب من حولنا خائفاً متردداً كأنما أزعجه أن يرى غريبين وهو يبحث عن صاحبه.

فاوست :

لقد ضاقت الحلقة، وها هو قد دنا منا.

واغنر:

أرأيت أنه كلب وليس بعفريت؟ ها هو يبصبص بذنبه ويقعي على رجليه وهذه كلها عادة الكلاب.

فاوست :

تعال اقترب منا.

واغنر:

انظر إليه تجده حيواناً أعجم كسائر الكلاب. إن سكت ولم تخاطبه وقف ساكتاً ينظر إليك. وإن خاطبته نهض قائماً على رجليه. وإن ألقيت له شيئاً عدا فأتاك به. وإن رميت عصاك في الماء سبح وراءها.

فاوست :

صدق ظنك، إني لا أجد فيه ما يدل على أنه عفريت. أن هو إلا كلب مدرب.

واغنر:

الكلب أن أحسن تدريبه وتهذيبه صار للمرء رفيقاً صالحاً. فهو أهل لكل ماتبذله نحوه من العطف والعناية، لأنه تلميذ ذكي.

(يذهبان والكلب نحو المدينة)

(٣)

حجرة الدراسة

(يدخل فاوست ومعه الكلب)

فاوست :

غادرت الحقول والوديان، وقد أرخى عليها الليل سدوله، وكستها الظلماء جلباباً حالكاً. إن الليل البهيم، بما له من جمال ساحر وبما فيه من أسرار غامضة، ليوقظ فينا روحاً أرقى وإحساساً أشرف. فتهدأ في القلب كل عاطفة ثائرة ويرقد كل شعور هائج مضطرب. وتتحرك في القلب عاطفتان: حب المرء لبني جنسه وحبه لخالقه.

إلزم السكون أيها الكلب، ولا تكثر الجلبة والحركة؟ وماذا يجديني أن تقف على العتبة تجمجم وتهمهم! تعال ارقد خلف هذا الوجاق. وسأحبوك خير وسادة لدي. فتنول ضيفاً مكرماً رغم أنك صامت لا تحير كلاماً. وسأبذل لك الرعاية التي تستحقها؛ جزاء لك على ما سليتنا اليوم بوثبك وعدوك ونحن بظاهر المدينة.

أراني كلما عدت إلى غرفتي الضيقة وجلست مستنيراً بهذا المصباح امتلأ صدري نوراً وقلبي راحة وسروراً. ورجع إلى العقل والتدبر؛ وعادت زهرة الأمل فأينعت. وأخذت أدمن التفكير في عجائب الحياة وأسرار الكون.

ويحك لا تزعجني بصوتك. وهل يتلاءم صوت الدواب وتلك الخواطر المقدسة التي تجيش بها نفسي الآن؟.. إنا ألفنا أن نرى الناس يعادون ما لا

يفقهون. ويهزءون بكل كيب وجميل إذا قصرت أفهامهم عن إدراكه. فهل أنت أيها الكلب مثلهم؟

لكني رغم كل مجهود أبذله ورغم ما في نفسي من نية خالصة مخلصة.. لا أرى صدري يفيض بما يروي الظمأ ويشفي الغليل..

فواعجبي كيف غاض الينبوع بهذه السرعة دون أن يبل أوامي!

تلك كانت تجربتي في الحياة المرة بعد المرة.

على أن هذا النقص قد يدفع بنا إلى التفكير في سداده. فنطرق باب الأمور السماوية؛ ونطمح بأعيننا إلى الإلهامات العلوية.. ثم نرى أن ليس في العالم الهام أو وحي أسمى وأجل مما في الإنجيل.

وإني لأشعر بشوق يدفعني لأن أتناوله فأترجمه بدقة وإخلاص. فأنقله من لغته الأصلية إلى لغتنا الألمانية المحبوبة.

(يتناول الإنجيل ويفتحه)

أول مسطور في هذا السفر هو ما يلي: "في البدء كانت الكلمة" لأقف هنا فلا خير في المضي قبل أن أستوعب هذه الجملة فهماً؟.. يستحيل أن تفي لفظة "الكلمة" بالمعنى المقصود، فلأترجمها بعبارة أحسن"في البدء كان الفكر"

لأتدبر هذه الترجمة مرة ثانية خشية أن تزل بي القدم: هل الفكر هو الذي يخلق كل شيء ويدير كل شيء؟ الأولى أن تكون الترجمة "في البدء كانت القوة"

لكني قبل أن يجف المواد عن هذه الجملة يخيل لي أنها قاصرة عن المعنى.. الآن أرى الرأي الصواب. فقد جاء الروح لنجدتي: "في البدء كان الفعل".

(مخاطباً الكلب)

إن كنا سنتقاسم هذه الغرفة أيها الكلب فدع الهرير!

أجل، كف عن العواء، فإني لا أطيق جوار رفيق مثلك يكثر من إزعاجي، ولابد لأحدنا أن يغادر هذه الغرفة، وأمامك الباب مفتوح لتذهب أنى شئت، وإن عز علي أن أنتهك حرمة الضيافة، لكن يا للعجب! أي مشهد هذا الذي أراه!

أفي الإمكان أن يحدث هذا! وهل حقيقة ما أبصره؟ أم خيال؟

إن الكلب قد نما جسمه وازداد في الطول وفي العرض!

وأراه يعلو وينتفخ بقوة.. وليس هذا بجثمان كلب.

فأي عفريت هذا الذي جئت به إلى داري؟

لقد بات يحاكي فرس البحر ضخامة ودمامة. وصار يكشر عن أنيابه ويقلب عينين يتطاير منها الشرار.

الآن عرفتك جد المعرفة. وإن خير سلاح لمحاربتكم يا سلالة جهنم هو خاتم سليمان.

عفاريت (في الخارج) تنشد:

رئيســــــــنا محبـــــــوس	معــــــــذب منكـــــــوس
مــــــــرتبط مقيـــــــــد	في ســـــــجنه مصـــــفد
لكنــــــــه ســـــــيخرج	وســــــوف يأتي الفـــــرج
لأنــــــــه كالثعلـــــــب	يبصـــــر ألـــــف مهـــرب
فليقـــــترب بعيــــــدنا	لعلــــــــه يريـــــــدنا

قفـــوا بهـــذي الـــدائرة ولننتظــــــر أوامــــــره!

فاوست :

أول ما يجب عمله تلقاء هذا الحيوان أن أتلو عزيمة العفاريت الأربعة[1]

ليحترق ساكن النار: سمندر!

لينهزم عفريت الماء: أندينه!

ليختف عفريت الهواء: سيلفا!

وليحل العناء بعفريت التراب: كوبوند!

أجل لعمري! من جهل العناصر والقوى المخبوءة فيها، عجز عن مقاومة الجان، ولم يكن له عليهم من سلطان.

يا ســـــــــــــاكن النـــــــــــــار!

يا عفريــــــت المــــــاء! فلتنصــــب انصــــباباً

يا عفريـــت الهـــواء! المـــع كالشـــهاب الســـاطع

ويا عفريــــت الـــتراب! منـــك المعونــــة أبـــدا

أقصــــــــر الآن. وتقـــــــدم إلى الأمـــــــام!

لكن يا للعجب! ليس في هذا الوحش أحد هؤلاء الأربعة.

وما زال مقعياً على رجليه فاغراً في وجهي فاه؟ كأني ما فعلت به شيئاً ولا أحدثت له ألماً. فلأقرأن عليك عزائم أشد وقعاً وأسرع فعلاً.

لعلك أيها الرجيم. قد هربت من الجحيم؟

[1] أي التي تقابل العناصر الأربعة المعروفة النار والماء والهواء والتراب.

فانظر إلى هذه الإشارة[١].

التي يخر أمامها الشياطين: تلك الزمر السوداء: هيبة ووجلاً.

هاقد انتفخ ووقف الشعر في جسده.

أيها اللعين! هل تبصر هذا وهل تفقه كنهه؟

هذا القديم الذي لم يخلق، الذي لا يتفوه باسمه، ملء السموات كلها، الذي طعنوه وصلبوه[٢].

أراه تراجع إلى وراء الموقد وانتفخ حتى بات يحاكي الفيل.. وقد ملأ الفضاء كله: وكأنما يريد أن يستحيل صحابة أو بخاراً فيتطاير ويتلاشى!

احذر ويلك أن تخرج من السقف وقع راكعاً عند قدمي مولاك.

أنا لا أهدد عبثاً. لقد أصابك شواظ من تلك النار المقدسة. وأسهل علي أن أحرقك بها إحراقاً.. فلا تدعني أبرز أسلحتي الهائلة!

(يخرج إبليس من بين الضباب في زي طالب علم متجول[٣]فيتلاشى الضباب)

إبليس :

فيم هذه الضجة؟ هل في قدرتي أن أخدمك أيها السيد؟

فاوست :

أأنت يا طالب العلم كنت تسكن في جوف ذلك الكلب؟

---

[١] هنا يرسم فاوست إشارة الصليب.

[٢] هذا كله يراد به السيد المسيح..

[٣] في القرون الوسطى كان هنالك فريق من الطلبة يتنقلون من جامعة إلى أخرى ويرتزقون أثناء تجوالهم هذا.

إن القصة لمطربة مضحكة.

إبليس :

أحييك أيها الأستاذ العلامة، وإن كنت قد أتعبتني بعزائمك حتى جعل العرق يتصبب من جسدي.

فاوست :

خبرني أولاً عن اسمك؟

إبليس:

هذا لعمرك سؤال تافه؛ خصوصاً من رجل يحتقر الألفاظ أي احتقار. ولا يأبه بالعرض؛ ويأبى إلا التعمق في البحث وراء الجوهر[١].

فاوست :

لكنكم أيها السادة كثيراً ما تنم أسماؤكم عن حقيقة أمركم. فيظهر لنا جلياً من أنتم حين يدعي الواحد منكم باله الذباب؛ أو المخرب المدمر؛ أو الكذاب الأشر.. أسماء تدل بوضوح على المسميات ، وعلى كل حال فقل لي من أنت.

إبليس :

أنا جزء من تلك القوة؛ التي نيتها أبداً نية السوء وصنعها أبداً صنع الخير.

فاوست :

ماذا عساك تقصد بهذه الألفاظ.. أفصح ولا تلغز؟

---

[١] هنا يتهكم إبليس ويسخر من فاوست لمحاولته ترجمة الجمل الأولى من إنجيل يوحنا بما لا يؤديه الفظ كما رأينا.

إبليس :

أنا ذلك الروح الذي دأبه الإنكار والذي يعشق العدم والفناء.. ويحق له هذا؛ لأن كل ما ينشأ في العالم وينمو جدير به أن يفنى ويمحى. وكان أولى له لو لم يوجد ولم ينشأ. وما تسمونه أنتم الغي والضلال والمعصية والباطل هذا كله هو عنصري الخاص الذي أنتمي إليه.

فاوست :

وكيف تزعم أنك جزء وأنا أراك أمامي كلا ؟

إبليس :

ما قلت لك إلا الحقيقة؛ أملاها علي تواضعي.إن الإنسان – ذلك العالم الصغير.. عالم السخف والغرور – كثيراً ما يزعم أن الكل في الكل؛ أما أنا فلست غير جزء من ذلك الجزء الذي كان في البدء هو كل شيء. أنا جزء من الظلماء التي تولد منها النور.

والنور هو ذلك الابن العاق الذي جاء يزاحم أمه في العالم؛ وينازعها ملكها القديم.

ولكن هيهات أن يبلغ مأربه، ما دام دأبه أن يتعلق بالأجسام فينيرها.. وما دام وجوده مرتبطاً بوجودها.. ولا تراه العين إلا إذا انعكس على جسم من الأجسام. وسيجئ اليوم الذي تنمحي فيه الأجسام وتنعدم الصور والأشكال؛ وهنالك تدول دولة النور، وتسود دولة الظلام.

فاوست :

الآن فهمت الأعمال المجيدة التي أنت قائم بها. وإذ عجزت عن محو الكائنات "بالجملة" تريد أن تجعل باكورة أعمالك محو الأجزاء الصغيرة.

إبليس :

وأصدقك الحديث أن ليس في هذا ما يطفئ الغلة.. إن هذا العالم الضخم يقاوم الفناء بقدم ثابتة وعزم وطيد.. وقد تقهقرت أمامه – بعد اللأي والعناء – منهزماً لم لأفز منه بطائل.. ولقد سلطنا عليه العواصف والأمواج والزلازل والنيران، ومع هذا لم يزل البر والبحر في أمن وسلام لم يمسسهما سوء.

أما تلك المخلوقات الحقيرة: سلالة الحيوان والإنسان: فقد نفذت فيها الحيل.. ولكم أهلكت من نسلها وقبرت.. فقام على أثرهم نسل جديد وسلالة تملأ السهل والجبل، حتى كدت أن أجن حزناً ويأساً.. في الهواء وفي الماء، في البر وفي البحر، تتزايد الكائنات وتتكاثر، لا يعوقها حر ولا برد ولا رطوبة ولا جفاف.. ولولا أني حفظت لي النار مسكناً لما وجدت مكاناً آوى إليه.

فاوست :

أأنت تريد أن تحارب القوة الخالقة الأبدية؟ أأنت تريد أن تسلط على العالم أسلحتك الجهنمية لتمحو الوجود وتنشر العدم؟ الخيبة والفشل نصيبك، وأولى بك يا ابن الخراب أن تقلع عن هذا وتنشد أمراً سواه.

إبليس :

حقيقة قد آن لنا أن نفكر في شيء جديد. وسأباحثك في هذا مرة أخرى. أما الآن فأذن لي في الذهاب.

فاوست :

عجيب منك أن تسألني هذا السؤال وأنا ما رأيتك قبل الساعة. أليس لك الحق أن تذهب متى شئت وتعود متى أردت العودة؟ وأمامك الباب مفتوح والنافذة، وإن حلا لك الخروج من المدخنة فأنت المخير.

إبليس :

أعترف لك أني أريد الخروج لولا أني يمنعني ذلك الشكل الخماسي المرسوم[1] على عتبتك.

فاوست :

ويك يا ابن الأبالة! هل أزعجك هذا المخمس؟ فكيف إذن تسنى لك الدخول وكيف انخدعت هذه الخديعة؟

إبليس :

لو تأملت المخمس لرأيت جانبه القريب من الباب مفتوحاً – إهمالاً من الراسم – فمن تلك الناحية تيسر لي الدخول، والآن استحال علي الخروج حتى يمحى هذا الرسم.

فاوست :

غرائب الصدف – لعمري – صيرتك سجيناً في يدي.

إبليس :

لم يستطع الكلب حين وثب إلى هذه الغرفة أن ينعم النظر فيما حوله. والآن بات الشيطان من جراء تلك الهفوة سجيناً لا يستطيع الخلاص.

فاوست :

لكن لم لا تخرج من النافذة؟

---

[1] هو شكل مما يستعمل في السحر والشعوذة كشكل نجم ذي خمسة اركان وكان يرسم على الأعتاب لكي يمنع الشياطين من دخول الحجرات.

إبليس :

قانون الجن والشياطين يقضي عليهم ألا يخرجوا إلا من حيث دخلوا؛ فنحن عند الدخول مخيرون وعند الخروج مسيرون مكرهون.

فاوست :

إذن ، فللجحيم أيضاً نظم وقوانين. وهذا لعمري حسن. ولقد يتيسر إذن أن يعقد المرء وإياكم أيها السادة الأبالسة اتفاقاً ومعاهدة.

إبليس :

نحن قوم نفي بكل ما نعد لا ننقص ولا ننقض منه شيئاً. لكن الأمر يطول شرحه. وسنتخاطب في هذا مرة أخرى. أما الآن فأسترحمك أن تفك أسري.

فاوست :

ابق لحظة لتقص علي قصة صغيرة.

إبليس :

دعني الآن وسأعود إليك قريباً فتسألني ما شئت.

فاوست :

ما أرغمتك على المجيء إلى هذه الغرفة؛ بل أنت الذي وضعت رجلك في الحمالة. وأولى بمن احتبس الشيطان أن يحرص عليه فإنه قل ان يقع في الشرك مرة ثانية.

إبليس :

إن كان يحلو لك بقائي فلأبق في صحبتك. على شرط أن أقضي الوقت في إبداء ما لدي من الفنون.

فاوست :

أنت حر في هذا ، ويلذ لي أن أرى ما لديك من الفنون على شرط أن يكون فيه تسلية وفكاهة.

إبليس :

في هذه الساعة القصيرة يا صديقي ستغنم حولك من اللذة ما لم تبلغه طوال هذه السنين. وإن ما ستطربك به الأرواح اللطيفة من الأناشيد الشجية وتبديه لعينيك من الصور البديعة ليس بمجرد سحر تافه.. وسترى أن لذته ليست قاصرة على ما تسمعه الأذن وتبصره العين. بل إن الأنف سيجد فيها متعته والفم لذته وشهوته واللمس نعيمه وسعادته.وسترتجل الأرواح كل هذا ارتجالاً من غير سابق استعداد.

ابتدئوا الآن؟

(الأرواح تنشد) [١]:

لتنجـــــــــل الغياهــــــــب   ولترفـــــــع الســـــــقوف

ولتــــــــنمح الســـــحائب   فوجههـــــــا مخيــــــــف!

---

[١] لابد من كلمة نفسر بها هذا النشيد ومغزاه! يعلم إبليس عن فاوست– ما لا يعلم فاوست عن نفسه – أنه في حاجة لأن يترك غرفته المظلمة ويخرج إلى العالم الفسيح فيرى السماء والماء والمروج والكروم والخمر والعشاق والغيد. وكل ما في العالم من بواعث السرور. ولكي يثير في نفسه رغبة شديدة ومبهمة لكل هذه الأشياء أخذ يسمعه هذا النشيد. وفيه يعرض لعينيه صوراً متباعدة مفككة قليلة الارتباط بعضها ببعض، أشبه شيء بما يراه النائم في الحلم... وقد أخذت فاوست فعلاً سنة من النوم أثناء إصغائه للأنشودة. التي سماها غوتيه المرقدة Einschlaferungslied. هذا ما يحسن أن يذكره القارئ لكي يدرك السر في أن الأبيات الآتية مبهمة المعنى والرابطة.. والترجمة في هذا ليست إلا صدى للأصل.

ولتظهـــــــر الزرقـــــــاء ولتشـــــــرق الشـــــــموس

فملؤهـــــــا بهـــــــاء تصـــــبو لـــــه النفـــوس!

أيا غيـــــــوم انقشـــــــعي لا تبـــــق منـــــك باقيـــــة!

ويا كواكـــــــــب المعـــــــــي وســـــط الليـــــالي الداجيـــــة

انظـــــر لكـــــان الســـــما أبـــــدع بـــــذاك منظـــــرا!

في كفهـــــم جميـــــع مـــــا تشـــــتاق أنفـــــس الـــــورى

يا مـــــــا أحـــــــيلاهم إذا مـــــروا علـــــى وجـــــه الثـــــرى

غـــص الفضـــاء مـــن شـــذا عبـــــــيرهم منتشـــــــرا

كـــم أبصـــروا مـــن عاشـــق منهمـــــــك في حبـــــــه؛

في الـــــــروض والحـــــــدائق يـــــنعم وســـــط صـــــحبه

أنظـــــــر إلى الأنهـــــــار، أنظـــــــر إلى الأزهـــــــار

أنظـــــــر إلى الأشـــــــجار أبـــــدع بـــــذي الثمـــــار!

عناقـــــــد تـــــــدلت مـــــن أفـــــرع الكـــــروم:

بـــــــدائع تجلـــــــت تصـــــبي نهـــــى الحلـــــيم

أنظـــــــر إلى الأعنـــــــاب تســـــيل خمـــــراً صـــــافية!

تســـــيل في الهضـــــاب أنهـــــار راح جاريـــــــه.

حصـــــباؤها مـــــن الـــــدرر وخـــــــالص الزبرجـــــــد

يميـــــل فوقهـــــا الشـــــجر بكـــــل غصـــــن أملـــــد

أبــــدع بـــــذاك نهـــرا يســــــيل في المـــــروج
ثم يصـــــــير بحـــــراً ذا منظــــــر بهـــــيج!
وســــط جبـــال عاليـــة يكســــو رباهـــا الســـندس
فيهـــا العيـــون الجاريـــة مــــن الصـــفا تنـــبجس
يا طـــير! هـــاك فاشـــربي مــــن راحهـــا وغــــردي!
ولتمرحــــــي ولتطـــــربي وســــط جنـــان الخلــــد!
وفي الســــماء حلقـــــي نحـــو النجـــوم الزهـــر.
للغـــــرب أو للمشــــرق: للشـــــمس أو للقمــــــر
حــــتى تـــوافي جــــزراً وســــط البحـــار قائمـــة؛
يا حســـــن هــــذا منظـــراً يشـــفي النفـــوس الحائمـــة!
فيهـــا الـــرياض الزاهـــرة فيهـــا المـــروج الناضـــرة
فيهـــا العيـــون الســـاحرة: ذات الجفـــــون الفـــــاترة
الحـــــور فيهـــا تمـــرح تـــــــرقص أو تغـــــرد
أو في البحــــار تســــبح أو في الســــماء تصـــعد.

إبليس:

ها قد أخذته سنة من النوم.. فمرحي مرحي يا زهرة شباب الشياطين. لقد أجدتم النشيد وأحسنتم الغناء حتى غشيه النعاس. وأنا مدين لكم من أجل هذه الأنشودة.. أنت أعجز يا صديقي من أن تمسك الشيطان فلا يفلت منك. فلتبق غريقاً في سباتك. ولتعبث بفكرك الأحلام الحلوة وتتلاعب بك الأوهام.

لكن كيف أخرج من هنا وهذا الطلسم منقوش على عتبة الغرفة. لابد لي من فأرة تقرضه بأسنانها.

ولست بحاجة لأن أقرأ عزيمة طويلة فها أنا أسمع صوت فأرة وأخالها تسمع صوتي.

"إن زعيم الفيران وإمام الجرذان وعميد بنات عرس الذي يدين له الذباب والبق والقمل. يأمرك أن تحملي على هذه العتبة فتقرضي ذلك الطلسم وتمحيه.

هأنت قد أتيت فأسرعي: لا تتركي من هذا الرسم أثراً. لم يبق إلا القليل. هأنت قد انتهيت من عملك. وقضي الأمر.

وأنت فاوست : طابت لك الأحلام حتى ألقاك بعد قليل.

(يخرج إبليس)

فاوست [مستيقظاً]

هل أراني خدعت مرة أخرى؟ أهكذا تختفي الأرواح بعد ظهورها. ولا يبقى سوى حلم كاذب خدعني به الشيطان وذكرى كلب قد هرب مني.

(٤)

حجرة الدراسة

(يطرق الباب)

فاوست :

ادخل! من جاء يزيد في كربي وتعذيبي؟

إبليس :

أنا

فاوست :

ادخل!

إبليس :

حتى تقولها مرة ثالثة

فاوست :

إدخل إذن

إبليس :

يعجبني منك هذا اللطف. وأخال أني سأكون وإياك على وفاق ووئام. أردت أن أشرح صدرك وأطرد عنك الهموم. فجئتك في زي السادة الأشراف؛ مرتدياً حلة حمراء مزينة بالقصب؛ ذات أكمام من خالص الدمقس. وعلى قلنسوتي هذه الريشة. وفي خاصرتي هذا الخنجر الماضي الغرارين. والآن أسألك

أن تتزيني بهذا الزي؛ وتتحلى بهذا الحلي. حتى تفك عنك هذه الأغلال وتنقشع عن سماء محياك هذه الغيوم؛ فتدرك حقيقة الحياة.

فاوست :

إن مثل هذا الثوب ليزيدني شعوراً بآلام هذه الحياة الأرضية الضيقة المحدودة.. ما أنا بالشاب الفتى فألهو وألعب؛ ولا بالشيخ الهرم فأقطع من الحياة كل رجاء. وكلما سألت الدهر منحة؛ ومددت كفي أبتغي نوالاً؛ كان الجواب الأبدي على سؤالي أن "يجب أن تحرم يجب أن تحرم!" مثل هذا الرد الخشن الجاف هو كل ما طرق آذاني طوال هذه السنين..

وإني لأستيقظ كل يوم فأكاد أتميز من الغيظ وأذرف الدمع كمداً وحسرة على أيام تذهب سراعاً. دون أن تبلغني من الدنيا قصداً أو تنيلني أمنية واحدة.ولو صور لي الوهم أن نجم سعدي قد بدا فما يلبث حتى تداهمه سحب الأحزان فتحجبه. وأعود كما كنت في ظلمات بعضها فوق بعض.

وتراني إذا جن الليل وذهب كل إلى فراشه يبتغي لنفسه الراحة، آويت إلى مضجعي، فإذا هو كأنه من شوك القتاد. وإذا أنا أتلوى عليه كالملسوع وأتقلب كأني راقد على الجمر. فإذا تجاسرت وأغمضت عيني لحظة أتتني الأحلام المروعة التي يهلع لها الفؤاد؛ ويفزع منها القلب الجليد.

إن الإله الذي يسكن في أعماق صدري هو أقدر ما يكون على إثارة مشاعري. مسيطر على قواي يسيرها كيف شاء. لكنه أعجز ما يكون عن التحكم في العالم الخارجي؛ لا حول له أمامه ولا قوة(١).

لا غرو – إذن – إن باتت الحياة عبأ على كاهلي وجرحاً في صدري.

---

(١) أي أن روحه قادرة على تعذيبه وتنغيص عيشه؛ بقدر عجزها عن تسخير العالم الخارجي لراحته وسعادته.

وأمسيت والحمام ضالتي المنشودة. وشفاء قلبي الكليم.

إبليس :

برغم هذا كله، فما الموت بمرغوب فيه ولا محبوب.

فاوست :

أجل لعمري! وسعيد جداً ذلك المحارب الذي يتجرع كأس للنون وسط أعلام النصر فيعقد الموت على جبينه إكليلاً من الغار مخضباً بالدماء.. وسعيد ذلك الفتى الذي قتل الليل ونفسه رقصاً؛ ثم خر بين ذراعي غادته صريعاً ويا ليتني ليلة أن رأيت ذاك الروح وتمثل جلاله أمام عيني داهمتني المنية وفاضت نفسي بين يديه.

إبليس :

على أنه في تلك الليلة نفسها أراد أحد الناس الانتحار بالسم. ثم أبى أن يتجرع الكأس.

فاوست :

أراك ولوعاً بالتجسس.

إبليس :

أنا محيط بكثير من الأمور علماً؛ وإن لم أكن عليماً بكل شيء.

فاوست :

لئن كانت تلك النغمات العذبة التي ألفتها من الصبي قد انتشلتني من وهدة اليأس القاتل. بأن أعادت إلى خاطري ذكرى أيام أسعد وعيش أرغد. فأيقظت كامن أشجاني. وحالت بيني وبين الموت الذي كنت أتمناه. فالآن أصب

اللعنة على كل شيء من شأنه أن يخدع الروح ويغرها بالزخارف والأباطيل. لكي يلقي بها في بؤرة هذه الحياة الملآى بالأحزان والهموم.

ألا لعنت تلك المثل العليا التي تقيد بها الروح نفسها

وتباً لتلك الظواهر الخلابة الجذابة التي تملك منا الحواس

وبعداً للأحلام المغررة التي تطمعنا في الشهرة وفي خلود الذكر.

ألا لعن المال؛ تصبو لإحرازه النفس.

وبعداً للزوجة والأهل؛ وللبنين والبنات وللخدم والحشم.

ألا لعن ملعون – إله النضار – إذ يدفع بنا لاقتحام المهالك من أجل كنوزه؛ ثم يسلمنا إلى نعيم الكسل والبطالة؛ ويوسدنا الراحة والدعة.

ألا تباً للخندريس وإن كان فيها الشفاء.

وبعداً للعشق ووصال العاشقين.

ألا لعنت الآمال والأماني ولعن الإيمان الثابت.

واللعنة كل اللعنة على الصبر الجميل.

أرواح (غير ظاهرة) :

ويك قد شوهت وجه العالم الغض الجميل

وغـــدا طرفـــك أعمـــى   لا يـــرى قصـــد الســـبيل

تزدري ويلك هذا السكون ذا الشأن الجليل.

هـــاك أنهـــار عـــذاب   في نواحيـــه تســـيل؛

فلماذا – ويك – لا يشفي لك اليوم غليل..

إبليس :

هؤلاء هم الأحداث الصغار من قومي وعشيرتي. لهم من أصالة الرأي والحكمة ما للشيوخ المحنكين وأراهم يريدون أن يجتذبوك إلى محاسن هذا العالم الفسيح. ويخرجوك من هذه البؤرة التي تقضي فيها أيامك في وحدة تضجر النفس وتخمد جمرة الحواس.

والآن لا تدع هذه الكآبة تذهب بك كل مذهب فإنها كالأفعوان فاغرة فاها لتلتهمك وأنت على قيد الحياة.

إنك لو خرجت إلى العالم وجالست. حتى الأسافل من الناس لاستشعرت لذة جديدة؛ ولأدركت أنك آدمي تعيش وسط الآدميين أمثالك. على أني لا أريد أن ألقي بك بين سوقة الناس وعامتهم.

أنا لست من العظماء ذوي القوة والجبروت؛ لكنك إن أردت أن أصاحبك مصاحبة الظل وأسلك وإياك سبل الحياة، فإني مستعد لأن أنصرف إلى خدمتك من الآن. فأكون لك في الحياة رفيقاً رفيقاً. وإن شئت أكن لك خادماً وعبداً رقيقاً.

فاوست :

ويحك فما تطلب مني تلقاء هذا كله؟

إبليس :

أمامنا من الوقت متسع، فنترك هذا إلى ما بعد.

فاوست:

لا وأبيك فأنا أعلم أن الأبالة أهل طمع وجشع. ولا يعملون عملاً لوجه الله إن كان للناس فيه فائدة. فقل لي أي جزاء تريد مني تلقاء خدماتك تلك.

فإن خادماً مثلك خطر على الدار وصاحبها أي خطر.

إبليس :

هاك ما أبتغيه منك .. ما دمت في هذا العالم فأنا أطوع لك من العصا وأسرع إلى إجابة أمرك من الرق وأعدى خلف ما تشتهيه من السهم؛ وأشد إخلاصاً لك من يمينك. حتى إذا حان الحين وانتقلت إلى العالم الآخر، فهناك فلتطعني كما كنت هنا أطيعك.

فاوست :

لست أعبأ كثيراً بالعالم الآخر.. في هذه الأرض ري من ظمئني. وشبع من سغبي. وشفاء لعلقي وغذاء لروحي. وهذه الشمس هي سراج حياتي، وهدايتي وسط الغياهب. فإن غاب هاتان عني وحيل بينهما وبيني. فليحدث لي ما عساه أن يحدث. فإني لا أبالي بعدهما بشيء. وما يهمني أن أعلم إن كان في العالم الثاني شقاء أو نعيم؛ وحب أم بغض ورفعة أم ضعة.

إبليس :

إن كان هذا رأيك فأبرم أمرك، وليتم بيننا التحالف. وعما قريب ترى من سحري العجائب وتنعم بما لم تره العيون؛ وما لم يخطر لإنسان ببال.

فاوست :

أأنت أيها الشيطان الحقير تمطر الهبات وتجزل العطايا؟ وأني لمثلك أن يدرك ما يخطر للنفس البشرية حين تحلق في السماء وترقى؟ وهل عندك إلا شراب لا يطفئ الظمأ وطعام لا يشبع من جوع. ومال كالزئبق لا تكاد تمسكه الكف حتى يزول ويختفي. أو لهو ولعب ليس وراءهما إلا الخسار والدمار؛ أو فتاة حبها رياء ووصلها نفاق؛ تضع رأسها على صدري وعينها تنظر إلى جاري. أو شهرة ومجد

هما كالشهاب الساقط يضيء لحظة ثم يخبو إلى الأبد؟

أتريد أن تخدعني بتلك الثمار التي أدركها العطب قبل أن تمد الأيدي لاقتطافها. أم بتلك الأغصان التي ما أورقت حتى ذوت ولا أينعت حتى صوحت؟

إبليس :

هيهات أن تزعجني بمثل هذا الكلام. حقيقة إني قد أقدم لك مثل تلك الكنوز، لكن سيأتي وقت أيها الصديق فننعم بطعام أشهى وألذ من صفاء وراحة.

فاوست :

لئن جاء اليوم الذي أرقد فيه على فراش الكسل والراحة، ولئن أصبحت بفضل مكرك وخداعك، وبحيلك وألاعيبك، أتوهم أني في رغد من العيش. أو خيل لي أني غدوت من السعداء. فليكن ذلك اليوم آخر أيام عمري. وهذي مراهنة بيني وبينك.

إبليس :

إذن اتفقنا.

فاوست :

وأزيدك فوق ما قلته: إني لو مرت بي لحظة من الزمن وكانت من الحسن بحيث قلت لها: إن "لا تبرحي فما أحلاك!".. فهنالك فلتهيئ لي سلاسلك وأغلالك.. هنالك أرحب بالموت؛ هنالك فلتندبني النوادب. وهنالك تنتهي خدماتك لي وعندها فلتقف ساعة عمري وليخب سراج حياتي.

إبليس :

تبصر فيما تقول فإني لن أنساه.

فاوست :

ويحق لك ذلك. فإني لم أفه بكلمة عبثاً. ومتى كان بيني وبين امرئ عهد فكلمتي تقيدني ووعدي يسترقني. سواء أكان العهد معك أم مع سواك.

إبليس :

حسن. وسأشرع من هذه الساعة في القيام بما يجب علي من فروض الخدمة والطاعة.على أن أسألك أن تخط لي سطرين يتضمنان ما تعاهدنا عليه.

فاوست :

ويلك! أتريد أن يكون العهد الذي بيننا مكتوباً؟ أما سمعت في عمرك بوعد الرجل الحر. ووفاء المرء بالعهد؟ أما يكفي أن كلمة فهمت بها ستقيدني أمامك ما حييت. وسأبقى في ربقتها مدى الدهر؟ فبينما الناس أحرار طليقون أكون أبداً أسير الوعد الذي وعدته.

على أنها قيود محبوبة إلى النفس وأسر يستعذبه الحر. وسعيد من حمل الوفاء في صدره نقيًا من كل شائبة. وضحى بكل ثمين في سبيل المحافظة على عهده. أما العهود المسطورة على الأوراق فشبح مخيف تنفر منه النفس الصادقة. لأن الكتابة تلب الكلمة روحها وسرها، فلا يبقى منها سوى الورق والمداد.

وماذا تبتغي مني أن أكتب لك أيها الشيطان الرجيم؟ وهل تريد أن أكتبه لك على الطروس أو أنقشه على الرق أو أحفره على الصخر؟

اختر ما يحلو لك.

إبليس :

عجبي منك كيف غلوت في الأمر وأخذت منك الحدة مأخذها. والمسألة هينة. اكتب على أي وريقة شئت. ومتى وصلت إلى النهاية فأمض العهد بقطرة من الدم.

فاوست :

ما دام هذا ما تشتهيه. فسأفعله على ما به من سخافة.

إبليس :

الدم عصير عجيب لا يعدل عنه إلى غيره.

فاوست :

لا يخطر ببالك أني أنقض العهد الذي أبرمته وإياك. فإن كل ما لدي من حول ومن قوة موقوف على إنقاذ ما عاهدتك عليه. ولقد مضى علي زمان كنت فيه كثير الطموح؛ لا أتطلع لما دون مرتبة الأرواح حتى بدا لي ذلك الروح الجليل منذ ليالٍ، فازدراني وأراني حقارة قدري.. ونظرت فإذا الطبيعة قد أوصدت أبوابها في وجهي. وإذا خيط التفكير قد تقطع. ومن قبل ما كرهت نفسي العلم ونفرت منه.

الآن فلنخمد عواطفنا الثائرة المضطربة في أعماق بحر من الشهوات. ولنكشف قناع السحر عن كل آية وأعجوبة لم تقع على مثلها العيون. ولنثب بقوة وسط أمواج الدهر المتلاطمة؛ وتيار الحوادث المتدفق.. وسيان عندي إن تعاقبت على الراحة والألم، والصحة والسقم؛ والنجاح والفشل. على شرط ألا يستقر لنا قرار، ولا نخلد إلى السكون.

إبليس :

أطلق لنفسك العنان كما تشاء. فإن أردت أن تشرب من سائر اللذات حتى تروى، أو أردت أن تتذوقها على عجل، فلك الخيار. وعلي أن أنيلك ما تريد. فتمسك بأذيالي؛ وأخلع عنك برقع الحياء.

فاوست :

ليس التمتع والتنعم هما بغيتي وضالتي. أريد ألقي بنفسي في مرجل الدهر الهائج المضطرب. أريد أن أمارس النعيم المؤلم؛ والغيظ المنعش. والبغض الذي ملؤه الحب. والآن وقد بات صدري حرًا من ممارسة العلوم؛ فلن أحول بينه وبين الآلام مهما جلت أريد أن أشرب بالكأس التي يشرب بها سائر الناس وأن أرقى إلى أسمى غاية ثم أهبط إلى أعمق هوة. حتى يمتلئ صدري بما يعانيه الناس من سعادة وشقاء. فلا تزال نفسي تكبر وتعظم حتى تحتوي نفوس الناس جميعًا. ثم أرد الحوض التي قدر لهم أن يردوها.

إبليس :

صدقني، أنا الذي قضيت آلاف السنين أطعم من ذلك المصاب، إنه لا يوجد في العالم رجل استطاع أن يسيغ الحزن غذاء والهموم شرابًا.. ولو قضى في محاولة هذا العمر كله من المهد إلى اللحد. وثق بقولي إن هذا العالم البديع إنما هو ملك لإله واحد. فهو وحده يعيش وسط النور الأبدي. أما نحن– الشياطين– فقد ألقى بنا في حنادس الظلماء. وأما أنت فيتعاقب عليك النور والظلام والسعادة والشقاء.

فاوست :

ولكني أريد.

إبليس :

يا حبذا ما تريده لولا أنني أرى أمامنا عقبة هائلة: ذلك أن العمر قصير والقصد بعيد. وقد يحسن بك أن تتلقى بضعة دروس. فالتمس لك شاعرًا من الشعراء ولازمة ملازمة الظل. ودعه يسبح بك في سماء الخيال. فيحشو رأسك المبجل بسائر الصفات الكريمة والأخلاق النبيلة. ببسالة الأسد وخفة الظباء. ونخوة الأبطالي وثبات الجرماني. دعه يعلمك كيف تجمع بين خبث النفس وكرم الطباع. وكيف تستطيع– ودم الشباب يغلي في عروقك؛ وشهوات الصبي تجيش في صدرك– أن تعشق عشقًا هادئًا مطابقًا لقوانين ونظم موسوعة.

وأنا نفسي أود أن لو رأيت مثل هذا العلم؛ إذن لأطلقت عليه اسم العالم الصغير.

فاوست :

ومن أنا حتى أعجز عن إحراز ذلك التاج الجليل الذي تطمح إليه النفس وتشتاقه كل جارحة من جوارحي؟

إبليس :

أنت كما أنت! حاول ما شئت أن تطول وتسمو.. ضع على ناصيتك من الشعر المستعار آلاف الخصلات وضع في رجليك أحذية عالية. فلا وأبيك ما أنت بعد هذا كله إلا حيث كنت من قبل.

فاوست :

إني أحس صدق ما تقول.. وعبثًا أحرزت سائر الكنوز التي أنتجها الفكر البشري على مر السنين. ثم جلست بعد لأي أتأمل حالتي. فإذا أنا لا تفيض من نفسي قوة جديدة. ولا أراني اقتربت قيد شعرة من الذات اللانهائية.

إبليس :

يا سيدي الطيب القلب إنك ترى الأشياء كما يراها سائر الناس. والواجب يقضي علينا أن نسلك مسلكًا جديدًا. قبل أن تنصرم لذات العمر ويفوت الأوان.

أليست لك يداك ورجلاك؛ ورأسك وبطنك.. فلماذا لا تستخدمها جميعًا في التنعم والتمتع. وهل هذا ضائرك بشيء؟ ألا ترى أنه لو كان لي ستة من جياد الخيل لأصبحت قادرًا على التصرف في قواها كيف أشاء فأعدو بها حيث أريد كان لي أربعًا وعشرين ساقًا.

فلتنهض الآن ولتسارع إلى العالم! ودع كل هذا التفكير الذي لا يجدي. فلعمرك ما الرجل الذي يقضي عمره يفكر ويحسب إلا كالحيوان الأعجم، يدور في دائرة ضيقة لا زرع فيها ولا عشب. ولو خرج عنها لحظة لرأى حوله الزروع الناضرة والمراعي الخصيبة.

فاوست :

إذن فبماذا نبدأ؟

إبليس :

أول شيء نعمله أن نغادر هذا المكان. يا عجبًا لك كيف استطعت البقاء في دار العذاب هذه؟ أي عيش هذا الذي تعيشه أنت وتلاميذك؛ وأي بلاء تعانونه في هذه البؤرة؟ وكان الأخلق بك أن تترك هذه الأعمال العقيمة لرجل بليد غليظ القلب ممن يستطيعون لها احتمالاً. وماذا يجديك أن تقضي عمرك تذرو الهشيم المرة بعد المرة. ومع هذا فإنك لا تقدر أن تبوح لتلاميذك بأجل وأسمى ما تعلم كأني الآن أسمع صوت أحدهما قادماً إلينا.

فاوست :

أنا لا أطيق رؤية أحد.

إبليس :

وما يصنع المسكين وقد طال به الانتظار؟ أولى بنا ألا نتركه يرجع بخفي حنين – أعطني رداءك وقلنسوتك. أن التنكر بهذا الزي يلائمني الملاءمة لكها.

(يلبس ثياب فاوست)

ولن يخونني ذكائي في مثل هذا الموقف. وحسبي أن أتكلم وإياه هنيهة ريثما تتأهب لرحلتنا الميمونة.

يخرج فاوست ..

إبليس (في ثياب فاوست الطويلة)

احتقر العلم والعقل ما شئت؛ وهما أجل وأغلى ما يملكه البشر. ثم تعال فألق بنفسك بين مخالب الشيطان المضل ليخدعك بسحره وحيله! الآن قد أصبحت لي؛ بلا قيد ولا شرط.

إن القضاء قد منح هذا الرجل روحاً طموحة: تسعى أبداً إلى الأمام وتشرئب أبداً إلى العلياء؛ ولشدة تسرعه وتطلعه إلى السماء قد عميت عينه عن رؤية ما على الأرض من لذات وخيرات.

والآن سأجره جراً في مسالك الحياة الوعرة. وأرضيه عن مطامعه الجسيمة بالحقير التافه.. ولسوف يقتله الجوع وينهك قواه الظمأ؛ ثم يلتمس الطعام والشراب فيراهما على كثب منه. ويمد يديه فلا يستطيع لهما طلباً..

ولا نجاة لمثل هذا من الدمار. فلو لم يسلم نفسه إلى الشيطان لرأيناه بعد

حين يسير إلى حتفه من تلقاء نفسه.

(يدخل تلميذ)

التلميذ :

قصدت هذه البلدة منذ زمن قصير. وجئت وقلبي ملؤه الهيبة، لكي أتشرف برؤية ذلك الرجل العظيم الذي سارت بذكره الركبان: والذي يعظمه الجميع ويبجلونه.

إبليس :

سرني أدبك؛ على أنك لا ترى أمامك إلا رجلاً مثله في العالم كثير. هل سبق لك أن ذهبت إلى معهد آخر؟

التلميذ :

إني ألتمس منك أن تعني بأمر تعليمي، وقد أتيت ولي رغبة شديدة في العلم ونشاط جم. ولدي من المال ما يكفي حاجتي. وقد غادرت أهلي ووطني رغم معارضة أمي الشديدة. لعلي أحرز من المعارف ما يعلي قدر المرء ويرفع منزلته.

إبليس :

إذن لقد وفقت إلى خير مكان.

التلميذ :

أقول لك الحق. لقد حدثتني نفسي بالرجوع؛ ولم يرق في عيني منظر هذه الجدران، وتلك الحجرات القاتمة. والمكان كله محدود محصور: لا ترى فيه ماء ولا خضرة ولا نبتاً ولا شجراً. وفي مثل هذه الغرف وبين تلك المقاعد يخمد

الفكر ويعيا السمع والبصر.

إبليس :

ستعتاد نفسك كل هذا. والطفل ينفر بادئ بدء من ثدي أمه. ثم متى ألفه وعرفه أكب عليه برغبة وشهوة. وأنت كذلك ستقبل على لبان الحكمة والعلم فترتضع منها ما فيه ري لظمئك وغذاء لروحك.

التلميذ :

سأتمسك بأذيال العلم. وأقبل عليه فرحاً مسروراً. فقل لي كيف أصل إلى غايتي.

إبليس :

قبل أن نتعمق في الحديث أريد أن أسألك. هل اخترت الكلية التي تريد أن تلتحق بها؟

التلميذ :

أريد أن أصبح في مصاف رجال العلم وأود أن أحيط بما في الأرض وما في السماء. وأن أدرك أسرار العلوم ومكنونات الطبيعة.

إبليس :

إنك سائر في أقوم طريق، فحذار أن تضيع وقتك سدى!

التلميذ :

سأنهمك في الدرس روحاً وجداً. بيد أني لا أكتمك أني لا أستطيع أن أستغني عن قليل من اللهو والتسلية من آن لآن. ناهيك بأيام الصيف الجميلة.

إبليس :

أحسن الانتفاع بالوقت فإنه سريع الذهاب. ونظم عملك حتى تتوفر لديك فسحة من الزمن.. وإني أنصحك أن تبدأ أولاً بدراسة المنطق؛ حتى يمرن ذهنك وترتاض روحك؛ وتحصر فكرك في دائرة ضيقة وتقيده بسلاسل من الفولاذ؛ كي لا يكون طليقاً حراً يسرح ويمرح حيث شاء.

وسيعلمك المنطق أن كثيراً من الحركات والأعمال البسيطة الهينة: التي نعملها في كل حين ونظنها أمراً واحداً مثل الأكل والشرب – هي في الحقيقة حركات معقدة لها أوائل وأواسط وأواخر: وأن الفكر عند اشتغاله يشبه آلة النسيج. تضرب بيمينك في موضع منها فتتحرك آلاف الخيوط؛ ثم تضرب بيسارك في موضع آخر فتتشبك الخيوط بعضها ببعض؛ وترتبط اللحمة بالسدي.

ويجيء الفيلسوف بعد هذا فيريك بالدليل القاطع أن سير المنسج يجب أن يكون على هذا النمط؛ وأنه لو لم يكن الأمر الثالث لما كان الرابع؛ وأن الثاني سبب وجود الثالث. وأنه لولا الأول لما كان الجميع.

مثل هذه المعلومات قد شغفت التلاميذ حباً؛ ولو أنهما لم تزدهم بالنساجة علماً. وطريقة العلماء إذا أرادوا وصف جسم حي. أن ينتزعوا منه الروح. ثم يمسكوا أوصاله بأيديهم ويحدقوا فيها بأبصارهم؛ وقد ذهبت قيمتها بعد أن غادرتها تلك الجوهرة الغالية. وهم يسمون هذا "خصائص الطبيعة". وما يسخرون إلا بأنفسهم وهم لا يشعرون.

التلميذ :

لم أستطع فهم عبارتك الأخيرة.

إبليس :

لا بأس ، فستعتاد فهم هذه الأمور؛ متى علمت كيف تفرق بين الأشياء ثم تعود فتجمعها بعضها إلى بعض.

التلميذ :

لكن ما بال رأسي قد تشوش واضطرب كأنما تدور فيه طاحون.

إبليس :

أنصت إلي! أول ما يجب عليك عمله هو أن تدرس ما وراء الطبيعة؛ فبذلك تحصل من المعلومات العميقة العويصة ما يستحيل على الفكر البشري إدراكه وفهمه. وسواء أفهمت الأمور أم لم تفهم؛ فتصبح لديك مجموعة قيمة من الألفاظ والأسماء.

ونصيحتي لك أن تواظب على درسك في الأشهر الأولى.. فاذكر أن ساعات الدراسة خمس. وبكر إلى الدرس ما استطعت التبكير. واحرص على قراءة درسك قبل أن تدخل حجرة التعليم. لترى أن الأستاذ لن يلقي إليك كلمة واحدة غير ما في كتابك. وبرغم هذا يجب أن تكتب كل ما يلقي عليك حرفاً بحرف، كأنك تتلقى درسك من الروح القدس.

التلميذ :

سأحفظ نصيحتك هذه في أعماق صدري. وأنا أعلم أن كل ما يسطره المرء بالمداد الأسود على الصحائف البيضاء خير ذخر يقتني.

إبليس :

إذن فاختر لنفسك إحدى الكليات.

التلميذ :

دراسة الحقوق لا تلائمني.

إبليس :

أمر لا تؤاخذ عليه.. وأنا أعرف حالة ذلك العلم معرفة تامة.. فما الشرائع والقوانين سوى أمراض مزمنة متوارثة تركها لنا آباؤنا وأجدادنا، وأسلمها السلف للخلف؛ فتنتقل عدواها من جيل إلى جيل ومن بلد إلى بلد؛ وبمضي الزمن تصبح حكمتها خرافة وصالحها خبيثاً.. والويل لنا ما دمنا أحفاداً لأولئك الأجداد الذين أورثونا حقوقهم وقوانينهم. أما الحقوق التي تولد معنا حين نأتي إلى هذا العالم فضائعة لا يطالب بها أحد.

التلميذ :

أراني ازددت لها كرهاً بعد الذي سمعته منك؛ فيا سعادة من تكون له مرشداً وهادياً. فما قولك في دراسة الفقه وعلوم الدين؟

إبليس :

أريد ألا تضل السبيل. فهذا العلم صعب الملك؛ وسرعان ما يضل فيه الطالب. وقد امتزج فيه الشهد والسم الزعاف امتزاجاً يتعذر معه أن يميز المرء بين الدواء الشافي والسم القاتل.

وخير سبيل تسلكه في هذا العلم هو أن تصغي بانتباه لكل ما يقوله الأستاذ ثم تردده لنفسك وتكرره أمام الناس. وفي كل المسائل: عويصها وسهلها، تمسك بالألفاظ؛ وتعلق بأهداب العبارات – فإنها أسلم منهاج يوصلك إلى كعبة الحق واليقين.

التلميذ :

لكن لابد للكلام من معنى يؤديه.

إبليس :

لا بأس. وإنما يجب على الإنسان ألا يفقد ثقته بنفسه. فكثيراً ما يعوز المعنى فتجد لديك من الألفاظ الحسان ما فيه الغناء. والألفاظ هي المحور الذي تدور عليه المحاورات؛ والسلاح الذي تفوز به في مواقف الجدال. وباللفظ تبنى القواعد والمذاهب. فثق بأهمية الألفاظ؛ واحرص عليها الحرص كله.

التلميذ :

سامحني؛ إن ضايقتك بكثرة الأسئلة. هل تتكرم بأن تقول لي كلمة عن علم الطب! لقد سمعت أن مدة الدراسة ثلاث سنوات. ثم ذكرت أن بحر هذا العلم فسيح شاسع. فأخذتني الدهشة. وحبذا لو بينت لي السبيل؛ وأوضحت لي أقوم طريق أتبعه.

إبليس (لنفسه):

حسبي تكلمت حتى الآن بتلك اللهجة العقيمة. ولأرجع لأصلي وأتكلم كما يتكلم الأبالة.

(بصوت عال) سهل عليك أن تفهم روح علم الطب وسره. بعد أن تدرس علوم الأوائل والأواخر وتفهم حقائق العالمين الأصغر والأكبر تترك حبل الأمور على غاربها؛ وتسلم كل شيء للقضاء والقدر. وعبثاً تحاول أن تسبح في بحار العلوم والفنون، فما يمكن للمرء أن يعلم إلا ما يستطيع أن يتعلم – وإنما رجل الدنيا من عرف كيف ينتهز الفرصة. وأنا أراك قوي البنية، كثير الجرأة. فإن قدرت أن تكون كثير الثقة والاعتداد بنفسك فتكتب كذلك ثقة الناس أجمع.

تعلم بنوع خاص كيف تسوس النساء. فإن عللهن وأوجاعهن – على كثرتها وتنوعها – تعالج بطريقة واحدة. وحسبك أن تتصف بالشرف وكتمان الأسرار فيصبحن جميعاً في قبضة يدك.

لكن لابد من إحراز لقب في العلم حتى يكون لهن من هذا دليل قاطع على تفوقك. ثم تصبح وقد أحرزت منهن ما عجز الآخرون عن إدراكه طوال السنين.

تعلم كيف تجس نبضهن الصغير؛ ملقياً عليهن نظرات يشتعل فيها لهيب الخبث والمكر؛ مطوقاً خصرهن النحيل بذراعك لتعلم إن كان النطاق مشدوداً ومجهداً لأجسامهن.

التلميذ :

هذا لعمري أحب إلى نفسي. وهنا أرى الغاية واضحة والطريق المؤدية إليها.

إبليس :

إن النظريات كلها عتيقة بالية وأما شجرة الحياة فيانعة خضراء.

التلميذ :

أقسم لك أني من شدة السرور في حلم.فهل تسمح لي مرة أخرى أن أرجوك لتتفضل علي بحكمة من حكمك الغالية ودرة من كنوزك؟

إبليس :

لك مني ما أقدر عليه.

التلميذ :

لا أستطيع أن أرجع أدراجي دون أن أقدم لك كناشتي هذه لتتفضل علي بسطر تكتبه.

إبليس :

عن طيب خاطر (يكتب ويرد الكراسة)

التلميذ :

(يقرأ بإعجاب)

Scientesbonumetmalum Eritissicut Deus

ســــتبلغون مرتبـــــة الآلهـــــة وتميـزون الطيـب مـن الخبيـث[١]

(يطوي الكراسة بإجلال وأدب ويخرج)

إبليس :

تمسك بهذه النصيحة واتبع ما أشارت به خالتي الحية. وبرغم ما تزعم من اقترابك من مرتبة الآلهة؛ فلسوف ترتعد فرقاً حين تسير في تلك الطريق الوعرة.

(يدخل فاوست)

فاوست :

أين نذهب الآن؟!

---

[١] هذه العبارة التي أوصى إبليس بها التلميذ هي كذلك العبارة التي قالتها الحية لكي تغري حواء على الأكل من الشجرة – راجع سفر التكوين – الإصحاح الثالث.

إبليس :

حيث يحلو لك. نشاهد أولاً العالم الأصغر ثم العالم الأكبر[1] ولا تسل عما ستحسه من السرور وما تجني من الفائدة.

فاوست :

لكن ألا ترى أن لحيتي الطويلة لا يلائمها اللهو واللعب. وأكبر ظني أن لن ألاقي في هذا السبيل أي توفيق. وأنا أجهل أساليب العالم الجهل كله. ولا أكاد أراني بين أناس آخرين حتى تملكني الحيرة والاضطراب. وتصغر نفسي في عيني.

إبليس :

يا صديقي كن ذا وثوق بنفسك تهن عليك كل هذه الشدائد.

فاوست :

وكيف تخرج الآن من هنا؟ هل أعددت المركبة والجياد؟

إبليس :

لا حاجة بنا إلى هذا. فأنا أبسط عباءتي ثم نمتطي صهوتها فتشق بنا الجو وتسبح بنا في الهواء. والأفضل ألا تحمل معك أمتعة ثقيلة فتعوق طيراننا وسأهيئ نسيماً نارياً ليحملنا. فإن كنا خفافاً كان هذا أدعى إلى السرعة.ولتهنأ وتنعم بحياتك الجديدة.

---

[1] ذكر العالم الأصغر (ميكرو كوزموس) والأكبر (ساكروكوزموس) كثيراً في هذا الكتاب والعالم الأصغر هو الإنسان في مختلف أحواله وأطواره. ففي الجزء الأول من كتاب فاوست يقود إبليس فريسته حيث يريه الناس وطباعهم ولذاتهم ونزعاتهم. وبهذا يره العالم الأصغر أما في الجزء الثاني فيريه شيئاً من العالم الأكبر وهو الكون العظيم اللانهائي الذي لا يحده زمان ولا مكان.

(٥)

حانة أورباخ في لايبزغ[١]

(جماعة من الشاربين)

ضفدعة :

ويلكم! ما لكم لا تشربون ولا تضحكون. وما لوجوهكم عابسة وجباهكم مقطبة! لقد خمدت نار حميتكم وصرتم كالحطب الرطب لا ترجى منكم فائدة.

براندر :

أنت المقصر؛ لماذا لا تأتينا بنكتة من نكاتك السخيفة أو فصل من فصولك الباردة؟

ضفدعة :

(يصب على رأسه خمراً) دونك ما تريد.

براندر :

حقيقة إنك بارد جداً.

ضفدعة :

أنت الذي طلبت الفصل البارد.

---

[١] هذه الحانة القديمة التي لم تزل موجودة إلى يومنا اكتسبت شهرة غير قليلة

أولاً: لأن فاوست كان يتردد عليها في زعم كتاب القرون الوسطى الذين نقلوا إلينا قصته.

ثانياً: لأن غوبته نفسه كان يكثر من ارتيادها وهو طالب في جامعة لايبزغ. وجماعة الشاربين المذكورين في هذا الفصل هم كذلك من الطلبة.

سيبل:

الطرد جزاء من يعكر صفو مجلسنا بالمشاحنة والمشاكلة هلموا فلنغن ولنشرب ولنصحح بملء أفواهنا.. آه يا ليل!

ألتماير:

أسعفوني بقطعة قطن ، فقد كاد الملعون يخرق طبلة أذني بصياحه.

سيبل :

ويحك إني متى رن صوتي في أركان هذا المكان وملأ بصداه الآذان فهنالك تحسن لذة الطرب وتذوق حلاوة الغناء.

ضفدعة :

بلا ريب! ومن لم يعجبه هذا فليولناظهره.. هيه يا ليل!

ألتماير :

(صائحاً) هيه يا ليل!

ضفدعة :

ما شاء الله! إن الحناجر منتظمة الأوتار.

(يغني)

يا لقـــومي عجبـــاً مـــالي أرى دولـــة (رومـــا)
لم تـــزل في يومنـــا هـــذا كمـــا كانـــت قـــديماً

براندر :

قبحاً لك ولأنشودتك! أتعكر علينا سرورنا بأغنية سياسية كريهة! وما لك

أنت والسياسة؟ لو كنت تعقل لحمدت الله كل يوم على أن ليس لك في دولة روما لا ناقة ولا جمل.. أما أنا فأرى أن أكبر مغنم لي هو أني لست بقيصر ولا وزير. وإن كان لابد لنا من رئيس فلننتخب من بيننا رجلاً نسميه "شيخنا البابا" وأنتم تعلمون الصفات التي تؤهل الإنسان وترفعه لمثل هذا المنصب الجليل[1].

ضفدعة :

انطلـــــق نحـــــو الحمـــــى يا عنـــــدليب

حـــــاملاً ألـــــف ســـــلام للحبيـــــب

سيبل :

لا ترسل للمحبوبة أية تحية. فإني لا أريد أن أسمع بمثل هذا

ضفدعة :

بل أرسل لها التحيات والقبل بالرغم منك!

(تغني)

افتحـــــي الخـــــدر لصـــــب مســـــتهام

جـــــاءكي يلقـــــاك والقـــــوم نيـــــام

ثم يمضـــــي حـــــين ينجـــــاب الظـــــلام

سيبل :

تغن بها ما شئت وامدحها ما استطعت! وسيأتي وقت فأضحك منك

(1) من عادة طلبة ألمانيا – أو كان من عاداتهم – الاجتماع للشرب في نهاية السنة أو نصف السنة المكتبية. ومن شرب أكثر من غيره انتخبوه "بابا".

وأسخر؛ ولا وأبيك لتخدعنك وتتلاعب بك كما خدعتني من قبل. ولو كنت تعقل لأتحفتها بعفريت كالتيس الهرم. يقابلها عند ملتقى الطرق[1] أثناء عودته من نادي العفاريت في بلوكبرغ[2] فيلسب وإياها ألاعيبه الجهنمية ويصرخ في وجهها ويثب من حولها؛ وهو يحييها تحية المساء.

أما من كان آدمياً من لحم ودم. فأطيب من أن تكون له بها علاقة. والطرد من بيتي هو أحسن تحية تنتظرها مني.

براندر:

(ضارباً بيده على الخوان)

انتبهوا إلي جميعاً! وارعوني أسماعكم؛ واعترفوا لي جميعاً بالحذق والدراية. في وسطنا هنا أناس عتاق؛ ويجب علينا قبل انصرافهم أن نحييهم تحية جميلة كما هي العادة والعرف فأصغوا إلي وسأغنيكم أنشودة من أحسن طراز وأحدثه. ولتكرروا المصراع الأخير من بعدي.

(يغني)

ســــكنت في مخـــزن المـــأكول فــــاره،
ذات مكــــــر واحتيــــــال وشـــــطارة،
أكثـــــرت في البيـــــت نهبــــاً وأغــــاره.
لم تـــــدع فيــــه مــــن الســـمن أثاره
يا ذكي الفهم تكفيك الإشارة!
يا ذكي الفهم تكفيك الإشارة!

---

(1) من الخرافات الشائعة أن العفاريت تقابل الناس عند تقاطع الطرق.

(2) وبلكبرغ هو أعلى جبال الهارتسHarz بألمانيا وهو ملتقى الشياطين في عرف المعتقدين بالخرافات.

الكل (منشدين) :

براندر :

مــــرة – عفــــواً – رأتهــــا الطاهيــــة

وهــــي في لحــــس الأواني لاهيــــة

قالــــت. الآن اصــــبري يا جانيــــة

ســــوف تصــــلين بنــــاري الحاميــــة

حينمــــا تأتيــــك مــــن جمــــري شــــرارة

يا ذكــــي الفهــــم تكفيــــك الإشــــارة!

دســــت الســــم لهــــا وســــط الدســــم

وأتــــت فارتنــــا تجــــري ولم

تــــدر مــــا في الغيــــب مــــن هــــم وغــــم

إن حلــــو العــــيش تتلــــوه المــــرارة

يا ذكــــي الفهــــم تكفيــــك الإشــــارة!

يا ذكــــي الفهــــم تكفيــــك الإشــــارة!

الكل :

ياذكي الفهم تكفيك الاشارة

براندر :

لحــــت مــــا في الأواني بــــنهم

وانثنـــــت تصــــــرخ مـــــن فــــرط الألم

أي حـــــزن؛ أي كـــــرب؛ أي هـــــم!

باتـــــت الفـــــارة في طــــي العـــــدم

كــــل ريــــح ســــوف تتلــــوه الخســــارة

يا ذكـــــي الفهــــم تكفيـــــك الإشــــارة!

يا ذكـــــي الفهــــم تكفيـــــك الإشــــارة!

الكل:

ياذكي الفهم تكفيك الاشار

سيبل :

ما لهؤلاء الطعام يفرحون ويطربون كأن تسميم الفيران المساكين فن من أدق الفنون. وصناعة من أشرف الصناعات.

براندر :

يظهر أن بينك وبين الفيران صداقة متينة.

ألتماير:

ويك ياسمين البطن يا أصلع الرأس. كأن مصيبة الفيران قد أدخلت الرقة والحنان إلى قلبك. اتراك تنتصر للفيران لأنها تحاكيك في الغلظة والثقل.

(يدخل فاوست وإبليس)

إبليس :

أول ما يجب علي أن آتي بك إلى مواضع اللهو. لترى كيف سهل على

القوم أن يمرحوا ويفرحوا. كان أيام دهرهم كلها أعياد وكان السرور عليهم سرمد. فقليل الفكاهة يسبب لهم الفرح الكثير.. ومثلهم كمثل الهريرة التي تدور وتجري وراء ذنبها لاهية لاعبة وعلى شدة سرورها لا تعدو تلك الدائرة الضيقة التي تدور حولها. وكذلك هؤلاء القوم. فما دام الشراب لا يسبب لهم صداعاً. وصاحب الحانة يسقيهم والدفع نسيئة. فهم في سرور دائم! وانبساط لا يشوبه انقباض.

براندر :

أظنهما قادمين الساعة من السفر؛ لما يبدو عليهما من الدهشة والاستغراب.

ضفدعة :

لعلك صادق فيما تقول. وأخالهما جاءا لرؤية (لايبزغ) تلك المدينة الجميلة التي تحاكي باريس حسناً وبهجة.

سيبل :

ولكن من عساهما أن يكونا؟

ضفدعة :

دعوني وإياهما! فبكأس واحدة أستدرجهما وأستخرج سرهما من صدرهما كما تستخرج ثنايا الأطفال. وأكبر ظني أنهما من أسرة شريفة لما يبدو عليهما من الكبرياء والتبرم بالعالم.

براندر :

وأنا أظنهما مناديين في الأسواق وأراهنكم!

ألتماير:

ربما.

ضفدعة :

انظروا الآن كيف أعبث بهما؟

إبليس :

(لفاوست) ما أرى الناس يحسون وجود الشيطان ولو كان أقرب إليهم من حبل الوريد.

فاوست :

حييتم أيها السادة.

سيبل:

شكراً لك على تحيتك

(ثم يهمس مشيراً إلى إبليس): ما بال زميله الآخر يمشي مشية الأعرج![١]

إبليس :

أتسمحون لنا أن نجالسكم؟ إن في مصاحبتكم عوضاً للمرء عن كؤوس الصهباء الجيدة التي يستحيل أن نجدها الآن.

ألتماير :

كأنك لترفك لا تجد لذة في خمرتنا هذه.

---

[١] أصيب إبليس بالعرج في زعمهم حينما سقط من السماء.

ضفدعة :

أخالك قد غادرت ريباخ[١] في ساعة متأخرة. إضطررت للتخلف قليلاً لتتناول الطعام مع (يوحنا) المغفل.

إبليس :

لقد مررنا به أثناء سفرنا اليوم. وتحادثنا معه ملياً فما كان أشد شوقه إلى أقربائه وبني عمه. وقد سألنا أن نبلغهم تحياته وأشواقه.

(ثم ينحني أمام ضفدعة)

ألتماير:

(همساً) أرأيت أنه فهم؟

سيبل :

الرجل ذو مكر وخبث.

ضفدعة :

انتظروا قليلاً وسأتغلب عليه.

إبليس :

إن لم أكن مخطئاً فقد سمعناكم تنشدون أغان جميلة. وهذه الدار يلائمها الغناء لأن الصدى يرن فيها من جانب لجانب.

ضفدعة :

لعلك من النابغين في الغناء.

---

[١] ريباخ بلدة بقرب لايبزغ: وهي آخر مرحلة في طريق القادم على لاينزغ.

إبليس :

كلا! إن بضاعتي فيه قليلة لكن حبي له كثير.

ألتماير:

أنشدنا بعض ما عندك.

إبليس :

إن شئت كل ما عندي.

سيبل :

لتكن أنشودتك جديدة ما دخلت أذناً قط.

إبليس :

نحن قادمون الساعة من الأندلس بلاد الخمر والغناء.

(يغني)

كـــان فيمـــا مـــر ســـلطان خطـــير؛

ولـــه في القصـــر برغـــوث كبـــير

ضفدعة :

اسمعوا! برغوث! هل انتبهتم جميعاً لقوله؟ مرحباً بالبرغوث من ضيف كريم.

إبليس :

كـــان فيمـــا مـــر ســـلطان خطـــير،

ولـــه في القصـــر برغـــوث كبـــير

كـــان يعلـــي في الـــورى مـــن شـــأنه

ويراعـــــي قـــــدره مثـــــل ابنـــــه

فـــــدعا خياطـــــه يومـــــاً لقصـــــره

فـــــأتى مســـــتعجلاً طوعـــــاً لأمـــــره

قـــال: هـــــيء لي ثيـــاب الســـــندس

واكـــــس برغـــــوثي أبهـــــى ملـــــبس!

براندر :

لا تنس أن تشدد على الخياط كي يحسن قياس الثياب على قامة البرغوث. والويل له إن كانت السراويل ضيقة أو كانت أزرار القميص مخالفة لأحدث طراز.

إبليس :

(مغنياً)

أصـــبح البرغـــوث في أحســـن حـــال

ينثـــني عجبـــاً ويمشـــي باختيـــال

في ثيـــاب مـــن حريـــر وقصـــب

يلمـــع الـــدر عليهـــا والـــذهب

في بـــلاط الملـــك أمســـى كـــالأمير

مســـتجاب الأمـــر ذا شـــأن خطـــير.

بعـــد أن أحـــرز مــــا يرجـــو لنفســـه

أرســـل اســـتدعى لـــه أبنـــاء جنســـه

فـــأتى يجـــري أبـــوه أثـــر أمـــه

مـــلأوا القصـــر علـــى مـــن كـــان فيـــه

وغـــــداً مـــــنهم نبيـــــل ووجيـــــه؟

وأذاقـــوا أهلـــه مـــر العـــذاب

نغصـــوا الأكـــل علـــيهم والشـــراب:

أكثـــروا في جســـمهم قرصـــاً ولســـعاً

وأذابـــوا جلـــدهم عضـــاً ولـــذعاً

ورجـــال القصـــر خـــافوا الآن إن هـــم

قـــاوموهم غضـــب الســـلطان مـــنهم

أيهـــم يقـــدر أن يفـــتح فـــاه،

والبراغيـــث جميعـــاً في حمـــاه؟

الكل (منشدين):

أيهـــم يقـــدر أن يفـــتح فـــاه،

والبراغيـــث جميعـــاً في حمـــاه؟

ضفدعة :

مرحى! مرحى! لعمري لقد أحسنت!

سيبل:

هكذا فليكن حظ كل برغوث في العالم.

براندر :

مدوا أصابعكم وأمسكوهم.

التماير:

لتحيا الحرية! ولتحيا الخمر.

إبليس :

وددت لو أني أستطيع أن أشرب وإياكم كأساً تكريماً للحرية؛ لولا أن خمرتكم ليست على ما يرام.

سيبل :

لا نريد أن نسمع هذه العبارة مرة ثانية.

إبليس :

لولا خشيتي أن يتألم صاحب الحانة لأتحفت هؤلاء الضيوف الكرام بهدية من الخمر المعتقة.

سيبل:

أثن بها وأنا المسئول.

ضفدعة :

اتحفنا بكأس مترعة تنل منا الشكر والثناء. ولا تأتني بالشيء القليل. لأني إذا أريد مني أن أكون حكماً فلابد لي أن أملأ فمي وبلعومي.

التماير :

(همساً) صدق ظني فهما تاجرا خمر من إقليم الرين.

إبليس :

ائتوني بمثقب!

براندر :

وما تصنع بالمثقب؟ هل تركت الدنان عند الباب؟

التماير:

وراءك مخلاة لصاحب الحانة فيها كثير من الآلات.

إبليس :

(لضفدعة) قل لي أي نوع من الخمر تريد.

ضفدع:

وهل لديك من كل نوع؟

إبليس :

أترك لكم الخيار؛ وليطلب كل ما يشاء.

ألتماير:

ويك يا ضفدعة .. لقد بدأت تلعق شفتيك؟

ضفدعة :

ما دمت تركت لي الخيار؛ فإني أريد كأساً من نبيذ (الرين) إذ أحب شيء إلي هو ما ينتبه الوطن المحبوب.

إبليس :

(يقترب من ضفدعة : ويثقب أمامه في جانب المائدة ثقباً)

احضروا قليلاً من الشمع لأصنع منه سدادات.

ألتماير:

هذه هي الشعوذة بعينها.

إبليس :

(مخاطباً براندر) وأنت ماذا تشتهي؟

براندر :

أنا أشتهي نبيذ (شامبانيا) بشرط أن يكون من خير ما عصر العاصرون (يثقب إبليس أمامه ثقباً ويسده بالشمع).

لا يمكن للإنسان أن يتباعد عن كل شيء أجنبي. فكثيراً ما تكون مشتهيات النفس في بلاد بعيدة. والألماني الصميم يتثقل كل رجل فرنسي. أما الخمرة الفرنسية فيشربها بشهوة.

سيبل:

أما أنا فلا أحب الخمرة المرة. ويجب أن تعطيني أطيب الخمرة وأحلاها.

إبليس :

(يثقب في المائدة ثقباً أم سيبل) ستملأ كأسك بما تهواه نفسك.

ألتماير:

مهلاً أيها السيدان! حسبكما لا تسخرا منا.

إبليس :

ما يجرؤ أحد أن يسخر من سادة أمثالكم. والآن أسرع وأجبني، أي صنف من الخمر أقدم لك؟

ألتماير:

أريد من كل صنف؛ فلا تكثر الأسئلة.

(يثقب إبليس أمامه ثقباً ويسده)

إبليس :

(مشيراً بيده إشارات غريبة)

تنمو الأعناب على الكروم. والقرون على رأس التيس. وما الكرمة إلا خشب وهذه المائدة الخشبية ستخرج لنا خمراً. تأملوا في عجائب الطبيعة. وآمنوا بهذه المعجزات.. الآن أخرجوا السدادات واشربوا أطيب الخمر.

الكل :

(يخرجون السدادات ويملأون أقداحهم بما طلبوه من الخمور)

يا حسنه ينبوعاً يفيض علينا وما يغيض.

إبليس :

لكن احذروا كي لا يسقط على الأرض من الخمر شيء.

الكل :

(يشربون مراراً ويغنون)

نحـــن في لعـــب ولهـــو   وســـــــرور لا يـــــــريم

نحتســــي الخمــــر كــــأنا ألــــف خنزيــــر عظــــيم

إبليس :

(لفاوست) أترى هؤلاء القوم الأحرار! كيف ينعمون ويطربون؟

فاوست :

وددت لو نغادر هذا المكان.

إبليس :

انتظر حتى تراهم بعد قليل وقد ملكتهم نشوة الخمر ولعب السكر بألبابهم.

سيبل:

(يشرب من غير اكتراث فيقع بعض الخمر على الأرض ويخرج منها لهيب)

المعونة! النار! سعير جهنم!

إبليس :

(مخاطباً اللهيب) اهدأ أيها العنصر الحبيب!

(مخاطباً الجماعة) لم تكن هذه غير شعلة صغيرة من النار المطهرة[١].

سيبل:

ويلك أي شيء فعلت؟ انتظر حتى أريك عاقبة فعلك هذا! أجهلت من نحن؟

---

[١] أي النار التي تطهر من الذنوب في عرف النصارى.

ضفدعة :

الهلاك لك إن عدت لمثل هذا الأمر!

ألتماير:

أرى أنه يجب أن ينسحب من هنا بسكون.

سيبل:

ما هذا؟ أهنا تتجاسر على أن تسلط علينا ألاعيبك الشيطانية؟

إبليس :

اسكت يا خابية النبيذ.

سيبل:

إخسأ يا عصا المكنسة! أتجرؤ أن تجابهنا بهذه البذاءة؟

براندر :

انتظر وستهمي شآبيب الصفع والضرب.

ألتماير:

(ينزع السدادة من ثقب الخمر فيخرج منه لهيب)

النار! النار! إني أحترق.

سيبل:

ويل للساحر الفاجر! أهجموا فقد أصبح دمه هدراً.

إبليس :

(بشكل جدي)

سـحري وشـدة مكـري تضـل كـل جنـان!
كونـوا بغـير تـوان في غـير هـذا المكـان!

(يقفون كلهم حائرين ينظر بعضهم إلى بعض)

ألتماير:

أين أنا؟ ما هذه الأرض الجميلة؟

ضفدعة :

أحقول كرمٍ هذه التي أراها؟

سيبل:

أهذي عناقيد العنب على مقربة من يدي؟

براندر :

وانظر تحت هذه العريشة تر أغضان الكرم وعليها أحسن العناقيد.

(ثم يمسك بأنف سيبل والآخرون يمسك كل واحد منهم بأنف صاحبه)

إبليس :

الآن فلينكشف الغطاء عن أبصارهم ولينظروا كيف يداعبهم الشيطان.

(يختفي هو وفاوست .. فيستفيق الآخرون)

سيبل :

ماذا جرى؟

ألتماير:

ما هذا؟

ضفدعة :

أهذا أنفك الذي مسكته؟

براندر :

وهذا أنفك ما زال بيدي.

ألتماير:

إنها لضربة شديدة أصابت سائر أعضائي. ناولني كرسيًا فقد خارت قواي.

ضفدعة :

لكن قل لي كيف حدث هذا الأمر؟

سيبل :

وأين هرب الملعون؟ لو لقيته لطيرت روحه من جسده.

ألتماير:

بعيني رأيته خارجًا من الباب وهو راكب على باطية النبيذ. أشعر بثقل شديد في رجلي.. (يقترب من المائدة) ترى لم يزل في المائدة خمر؟

سيبل :

وهل كان الأمر كله إلا خداعًا وغشًا وسحرًا باطلاً؟

ضفدعة :

ومع هذا فقد خيل لي أني أشرب نبيذًا.

براندر :

ثم ما خطب تلك العناقيد.

ألتماير:

بالله قل لي! أبعد هذا لا يؤمن المرء بالمعجزات؟

(٦)

مطبخ الساحرة[1]

(في جانب من الغرفة قدر على وجفي تغلي؛ ويتصاعد منه بخر تبدو فيه صور وأشكال شتى وبجانب النار قردة تجمع الرغوة من القدر وتراقبها كي لا تطفح. وعلى مقربة منها القرد. وحوله صغاره تتدفأ. وعلى الجدران وفي أركان الغرفة أدوات سحر غريبة متنوعة)

(إبليس وفاوست)

فاوست :

إن نفسي تمج هذه السخافات وهذا السحر! وعجيب أنك تزعم أني سأجد شفائي وسط هذه الشعوذة وفي هذا المكان الكريه!

أألتمس الدواء لدى عجوز شوهاء وأسألها أن تساعدني بعقاقيرها القذرة كي ترجع إلى شبابي وأعود أصغر مما أنا اليوم بثلاثين عامًا؟

فيا ويلي إن لم يكن لديك وسيلة غير هذي أنال بها مقعدي! لقد عاد اليأس فاستولى على وعجيب أن ليس في العالم ذلك البلسم المنشود. وأن قوة الذكاء البشري ما برحت عاجزة عن الوصول إليه.

إبليس :

أراك رجعت إلى التكلم بعقل وحكمة؛ فاعلم أن هناك واسطة أخرى تصير

---

[1] لم يستطع إبليس أن يؤثر في فاوست وفي نفسيته باقتياده إلى تلك الحانة. فرأى أن لابد من إحداث تغيير كبير في حالة فاوست الجثمانية. فأتى به إلى إحدى الساحرات لكي يجعل له منها على شراب يعيد إليه شبابه؛ ويجعله أصغر مما هو بثلاثين عامًا.

بها شابًا فتيًا.. ولكنها بعيدة عما نحن بصدده الآن. ومكتوبة في سفر غير هذا السفر وقصتها قصة غريبة.

فاوست :

أريد أن ألم بها.

إبليس :

الواسطة المذكورة تنيلك بغيتك من غير مال ولا سحر ولا علاج.. تنطلق الآن إلى الحقول وتحمل فأسك على كاهلك. ثم تنهمك في الحفر والحرث. وتحصر ذهنك وفكرك في دائرة ضيقة. وتغتذي بأخشن الأطعمة وأبسطها. تعيش وسط البهائم كأنك بهيمة. وتعمل في حقلك وتشقى؛ حتى تحصد ما زرعت. مثل هذه الحياة تعيد إليك شبابك ولو كنت شيخًا هرمًا مشتعلاً رأسك شيبًا.

فاوست :

ما تعودت مثل هذا الأمر. ويدي لا تستطيع حمل الفأس. وأما أن أحصر فكري في دائرة ضيقة فهو ما لا أطيقه.

إبليس :

إذن لابد لنا من الاستعانة بالساحرة:.

فاوست :

لكن ما الذي يدعونا للالتجاء إلى العجوز؟ أما تقدر أنت أن تهيء هذا العلاج؟

إبليس :

ما أحسنها تسلية لو كانت من السهولة بحيث تتصور! أهون علي أن أبني ألف جسر ضخم من أن أصنع هذا العلاج. أنه عمل لا تكفي فيه المعارف

والعلوم. بل لابد للمرء من الصبر والجلد. ويجب أن تظل بجانبه العام بعد العام وتنتظر حتى يختمر على مر الدهور. والزمن وحده هو المساعد على تكوين هذا العلاج. فإني للشيطان هذا الصبر الطويل وتلك المقدرة على الانتظار.

أما جميع ما يلزم لهذا العلاج من المواد الغريبة والعقاقير النادرة فالشيطان يهدي الساحرة: إليها. ولكنه أعجز الناس عن صنع الدواء.

(يلتفت إلى الحيوانات)

أنظر إلى هذه المخلوقات الجميلة! هذا هو العبد وتلك هي الجارية. إن سيدتكم ليست في الدار؛ فأين ذهبت؟

الحيوانات :

خرجت من المدخنة؛ وذهبت إلى الوليمة!

إبليس :

وهل تغيب طويلاً؟

الحيوانات :

بقدر ما نصطلى ونتدفأ.

إبليس (لفاوست):

أما أعجبتك هذه الحيوانات اللطيفة؟

فاوست :

هي أبشع وأصبح ما وقعت عليه عيني.

إبليس :

أحب شيء إلي هو التحدث إلى أمثالها.

(الحيوانات) ويحكم أجيبوني! ماذا تطبخون في هذه القدر؟

الحيوانات :

نطبخ مرقًا للفقراء والمساكين!

إبليس :

حقًا أرى المحتاجين قد تزاحموا على بابكم.

القرد :

(يتقدم نحو إبليس متملقًا إياه)

أنعـــــم علـــــي بمـــــال فـــــالفقر هـــــد حيـــــالي
لـــو صـــرت يومًـــا غنيًـــا لحزنـــت أقصـــى المعـــالي
أن لم يكـــــن لي عقـــــل فالمـــــال يســـــتر حـــــالي

إبليس :

لو كانت الحظوظ تصيب القردة كما تصيب غيرهم؛ لكان لهذا القرد مطامع وآمال.

(في هذه الآونة يأتي القردة الصغار بكرة كبيرة ويلعبون بها ويدحرجونها)

القرد :

هـــــذه الـــــدنيا تراهـــــا في هبـــــوط وصـــــعود
مـــا لهـــا قـــط ثبـــات مـــا لهـــا الـــدهر ركـــود
تعـــد النـــاس ومـــا سمحـــت لهـــا الـــدهر وعـــود
البلـــى هـــذه الـــبرايا للفنـــا هـــذا الوجـــود

سـل قبـور الأرض كـم مـن | أمـم فيهـا رقـود
قـد ثـوى الأحفـاد وإلا | باء فيهـا والجـدود
ومـتى كنـت مـن الـترب | فللـترب تعـود
فسـواء حظـك اليـوم | نحـوس أم سـعود

إبليس :

ولكن ما هذا الغربال؟

القرد :

(يتناول الغربال بيده) لو كنت لصًا لعرفت خفايا أمرك الساعة.

(ثم يجري إلى القردة ويجعلها تنظر من وراء الغربال).

انظري من هذا الغربال! وقولي هل ترين اللص وهل تعرفين اسمه؟

إبليس :

(مقتربًا من النار) وما هذه القدر؟

الفرد والقردة معًا:

يا لك من أبله! ألا تعرف هذه القدر؟ أما تعرف هذا الوعاء.

إبليس :

تبًا لك من حيوان سيء الأدب.

القرد :

خذ هذه الخرقة واجلس على هذا الكرسي.

(يضطر إبليس للجلوس)

فاوست : (وكان في هذه الأثناء واقفًا أمام مرآة يقترب منها حينًا ويبتعد عنها حينًا ويرى فيها صورة جميلة).

ويحي ما هذا الذي أراه؟ أي صورة سماوية تبدو لعيني في هذه المرآة المسحورة؟

أيها الحب! أعرني أقوى ما لديك من الأجنحة فأطير بهما إلى هذه الفاتنة فأنعم بلقائها وألذ بقربها!

أراني كلما انتقلت من المكان الذي أقف فيه الآن واقتربت من المرآة محاولاً الدنو من هذه الصورة الماثلة أمامي احتجبت عن ناظري كأنما تتوارى خلف الغمام.

وما أحلاها صورة وأبهاها! أيمكن لا مرأة أن تحوز كل هذا الجمال؟ أم ترى أن ما في السموات من الحسن قد تجمع كله فكن في هذا الجسم الماثل بين يدي وإلا فإني لهذا الثرى أن ينبت مثل هذا الحسن الرائع؟

إبليس :

ولم لا؟ ألم يشتغل ربك ستة أيام في صنع هذا العالم؛ حتى أنه هو قد أعجب به أي إعجاب[1]؟ وإذا كان الرب أجاد صنع شيء فهل يكون إلا بالغًا الغاية التي ليس وراءها غاية؟

والآن أنعم النظر في هذه الصورة المليحة. حتى تطفئ غليل قلبك الحائم؛ وأنا أعلم أين آتيك بمثل هذا الكنز الثمين. وسعيد لعمري من ساعده الجد فحظى بعروس كهذه العروس وأحرز مثل هذه اللؤلؤة المكنونة.

(فاوست يديم النظر إلى المرآة متأثرًا: وإبليس يلعب بالخرقة التي في يده)

---

[1] إشارة إلى ما جاء في سفر التكوين (الإصحاح الأول) "ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جداً".

أنا هنا جالس على هذا الكرسي كالملك فوق عرشه؛ وهذه الخرقة سولجاني. وما يعوزني الآن إلا التاج.

(هنا نتناول الحيوانات الصغار تلجأ وتأتي به إلى إبليس :)

يا أيهـــا المـــولى الـــذي لـــــه المقــــام الأرفـــــع
جئنـــاك بالتـــاج الـــذي فيـــــه اللآلـــئ تلمـــــع

ثم يعدون وينبون والتاج يدهم فيسقط وينكسر.

الحيوانات :

يا ويحـــه قـــد انكســـر قضـــى بـــذلك القـــدر
لم يغـــن مـــن ذلـــك الحـــذر

فاوست :

(محدقاً بالمرآة) وبلى لقد كدت أن أجن جنوناً.

إبليس :

وأنا كذلك قد بدأ رأسي يدور.

الحيوانات:

أمـــا علمـــت أننـــا أشـــعر مـــن فـــوق الثـــرى
لنـــا قـــواف عذبـــة كـــأن فيهـــا ســـكرا
إن لم تجـــد معـــنى لهـــا فـــذاك دأب الشـــعرا

إبليس :

هذا اعتراف بالحقيقة ولئن لم تكونوا أشعر القردة. فأنتم بلا ريب أصدق

الشعراء.

فاوست :

أحسن صدري كأنما أخذت تتأجج فيه النار. فأسرع بنا من هذا المكان.

(هنا تطفح القدر التي أهل القردة مراقبتها؛ فيفيض ما فيها على النار؛ ويخرج منها لهيب هائل يرتفع إلى المدخنة. فعندها تنزل الساحرة: من المدخنة وتخرج من وسط اللهيب وهي تصرخ صراخاً مزعجاً).

الساحرة:

أواه! أواه! بعداً لك أيها الحيوان الملعون وسحقاً! ويلك أما تعلم أنك بإهمالك القدر كدت تحرق بدني! يا لك من لعين.

(ملتفتة إلى فاوست وإبليس)

وأنتما ما شأنكما؟ وما الذي تريدان؟ وما أتى بكما إلى هنا ؟ لأحرقن عظامكما بنيراني.

(تملأ المغرفة من القدر وتنثر بها اللهيب على فاوست : وإبليس : والحيوانات؛ فتئن هذه متألمة)

إبليس :

(يضرب بالخرقة التي بيده بعض الزجاجات، والأواني فيكسرها)

تحطمي! تهشي! انكسري نصفين!

هذا جزاؤك أيها العجوز الشمطاء!

(هنا تتراجع الساحرة منذعرة مندهشة)

ويلك هل عرفتني الآن أيها الهيكل العظمي؟ أعلمت من أنا أيتها الرمة

البالية؟

أرأيت أني أنا سيدك ومولاك. وأسهل علي بأن أمحوك من الوجود أنت وعصبتك وقردتك؟ أما عدت تعظمين هذا الكساء الأحمر؛ ولا هذه الريشة السوداء التي فوق قلنسوتي؟ وهل أخفيت وجهي عن الأبصار فلم تبصريني؟ أم تحسبين أنه لابد لي أن أعرفك بنفسي؟

الساحرة:

مولاي اغفر لي إن لم أحسن استقبالك! فما عرفتك لأول وهلة لأني لم أبصر لك حوافر الخيل المعهودة؛ ولا الغرابين الذين ألفنا أن نراهما معك.

إبليس :

عفوت عنك هذه المرة، لأننا والحق يقال لم نجتمع منذ زمن بعيد. فاعلمي ويلك أن الحضارة التي تلوث بها العالم كله قد امتد نفوذها حتى إلى الشيطان؛ فلم يعد أحد يراني في تلك الصورة الشمالية[1] وقد أصبحت وما لي قرون ولا ذنب ولا مخالب. أما أقدامي فلا غنى لي عنها. ولكني خشيت أن ينالني بعض الأذى من جرائها فاضطررت لإخفائها ولبست أرجلاً مستعارة كما يفعل الكثير من أبناء هذا الزمان.

الساحرة (وهي ترقص فرحاً):

إن أكـن قـد فقـدت حسـي فـلأن النبيـل إبلـيس : عنـدي

إبليس :

ويلك لا تسميني بهذا الاسم.

---

[1] الصورة الشمالية هي صورة إبليس ومعه الغرابان وذلك أن سكان شمال أوروبا كانوا يزعمون أن لإبليس غرابين لا يرى إلا وهما معه.

الساحرة:

لماذا؟ هل ساءك هذا الاسم بشيء؟

إبليس :

هذا اسم قد طرح في زوايا النسيان؛ وأصبح الناس يعتقدون أن ليس أمر الشيطان إلا حديث خرافة. على أن إنكارهم هذا لم يصلح من شأنهم، ولم يهدهم سبيل الرشاد، بل هم، على العكس، أنكروا وجود شيطان واحد فنبغ من بينهم من الشياطين ما لا يدركه العد.

أما أنا فسميني البارون؛ فأنا اليوم رجل من كبار الفرسان عريق في الحب والنسب ويجري في جسدي دم الأشراف النبلاء؟ أما إن سألت عن شعار أسرتي فهأنذا أريك إياه.

(ثم يأتي بحركة قبيحة)

الساحرة:

(تقهقه ضاحكة) ها! ها! لعمري إنك لكما عهدتك ما جن فاجر حلو الفكاهة.

إبليس : (لفاوست)

يا صديقي تعلم هذه الأمور، فهذه هي الخطة التي ترضى بها الساحرات.

الساحرة:

والآن قولاً أيها السيدان ما خطبكما؟

إبليس :

جئنا نطلب منك كأساً من ذلك المصير المعهود. لكني أسألك أن تعطينا

أقدم ما عندك؛ فإن مر السنين يضاعف من قوته.

الساحرة :

عن طيب خاطر. هنا زجاجة أعتز بها وأحرص عليها؛ وأنا نفسي أتناول منها جرعة بين آن وآن ولم يعد بها أدنى رائحة كريهة. وسأملأ لكما منها قدحاً.

(همسا لإبليس) لكنك تعلم أن هذا الرجل أن تناول الشراب ولم يكن لديه الاستعداد الكامل فلن تمضي ساعة حتى يصبح جثة هامدة.

إبليس :

إنه من خيار أصدقائنا؛ وسيستفيد من الشراب أجل فائدة. ويجب ألا نبخل عليه بأجود ما عندنا. فهلمي الآن ارسمي دائرتك المعهودة، واقرئي من العزائم ما تريدين قراءته ثم ناوليه كأساً مترعة.

الساحرة :

(ترسم دائرة كبرى؛ وتضع في داخلها أشياء شتى وأواني مختلفة؛ فعند ذلك تبدأ الزجاجات والأواني ترن وتحدث أصواتاً موسيقية؛ بعد هذا تجيء الساحرة: بكتاب ضخم وتدخل القردة في الدائرة وتضع الكتاب فوق أحدها. ويمسك الآخرون المشاعل بأيديهم؛ ثم تشير إلى فاوست أن يدخل الدائرة).

فاوست: (لإبليس)

أجبني ويحك؛ ما فائدة هذا كله؟ هذه الأعمال الكريهة والإشارات الجنونية والشعوذة الممقوتة أعرفها جد المعرفة وأبغضها أشد البغض.

إبليس :

هذه فكاهة لا يقصد منها سوى التسلية والضحك؛ فتساهل في هذا

الأمر. إن العجوز تريد بتلك الهمهمة والتمتمة أن تريك أنها من نطس الأطباء. وأن الدواء سيكون سائغاً والشفاء عاجلاً.

(ثم يدخل فاوست إلى الدائرة كرهاً)

الساحرة:

(تشرع في قراءة ما في الكتاب بصوت عال ولهجة متكلفة)

افهـــم حــــديث الســـحرة ... مــــن واحــــد لعشــــرة
دع اثنتــــــين تـــــــذهبا ... وخـــــذ ثــــلاثا نجيـــــا
وإن أخـــــذت الأربعـــــا ... تمســـى غنيـــاً أروعـــا
مـــــن ســـــتة لخمـــــس ... قالـــت عجـــوز الـــنحس
وســـــــبعة ثمانيـــــــة ... تـــدني الأمـــور القاصـــية
مـــا التســـع إلا واحـــدة ... والعشـــــر إلا جاحـــــدة
وإن هـــــــذا ســـــــائرة ... جـــدول ضـــرب الســـاحرة:

فاوست :

ما أراها إلا تهذي هذيان المحموم.

إبليس :

وهل أسمعتك إلا النذر اليسير من بضاعتها؟ وأنا أعرف كتابها هذا جد المعرفة فهو ممتلئ مفعم بهذه الترهات؛ ولكم أضعت ساعات من قوتي الثمين أحاول عبثاً أن أتفهم بعض ما فيه..

إن هذه المتناقضات المتقنة ليست سوى ألغاز ومعميات خاوية، يستوي في

فهمها الذكي والبليد. والإتيان بمثلها فن من الفنون التي مارسها الأوائل والأواخر وحيلة تذرعوا بها في كل زمن وفي كل عصر، فزعموا أن الثلاثة[1] واحد وأن الواحد ثلاثة فضللوا بالناس؛ وانتشر الباطل وطويت الحقيقة. وتسنى لهم بهذه الوسيلة أن يتقوا فضول السائلين والباحثين إذ ليس في العالم من يرغب في مجادلة المجانين ومناقشتهم. ومن عادة الناس إذا سمعوا كلاماً أن يتوهموا أنه لابد أن يكون ذا مغزى ومعنى وإن لم تدركه أفهامهم.

الساحرة :

إنمـــــا العلـــــم خفـــــي   عـــن عقـــول النـــاس جـــداً
نالـــــه قـــــوم كســـــالى   لم يعـــــانوا فيـــــه جهـــــداً
وكثـــير العقـــــل محـــــروم   وإن كـــــــــد وجـــــــــداً

فاوست :

تبا لها ولما تأتي به من السخافات. لقد أوشك رأسي أن يتصدع وبت كأني أسمع عصبة من المجانين يصرخون كلهم مرة واحدة ويهزون بأسخف الأقوال.

إبليس :

حسبك أيتها الساحرة: الهائلة! أسرعي فاملئي له الكأس حتى الحافة وأيقني أنه لن يمسه منها أقل أذى. فلقد طالما اضطر لأن يسيغ ويبلغ كل شيء غريب لكما يحصل على شهاداته ودرجاته الكثيرة.

الساحرة :

(تملأ القدح بالشراب فيتناوله منها فاوست، وحين يدنى الكأس من فمه

---

[1] هنا يشير إبليس إلى عقيدة الثالوث. ولم يكن غوتيه من المؤمنين بها. راجع شرح كالفن توماس على فاوست (ص ٣٠٧).

يبدو بأعلاها لهيب صغير فيتردد في الشرب).

إبليس :

تشجع ولا تحجم! وعما قليل يمتلئ صدرك فرحاً وطرباً. أتخشى لهيباً صغيراً بعد أن بت للشيطان صاحباً وخديناً؟

(يشرب فاوست الكأس فتفك الساحرة: الدائرة التي رسمتها ويخرج منها).

إبليس :

والآن لنبرح هذا المكان إذ يجب ألا تستريح بعد شرب هذا الدواء.

الساحرة:

هنيئاً لك الجرعة التي شربت!

إبليس :

إن كانت لك حاجة تريدين قضاءها فحدثيني عنها حين نلتقي في ليلة والبورغ.

الساحرة: (لفاوست)

وهذي أنشودة جميلة لو تغنيت بها من آن لآن لأحدثت في صدرك انشراحًا؛ وتركت في نفسك أحسن أثر.

إبليس :

أسرع بنا الآن ودعني أريك السبيل. لابد أن يسيل العرق على جسدك حتى تسري القوة إلى جسمك ظاهره وباطنه ويعود إليك شبابك الناضر. وأمامك فيما بعد متسع من الوقت للراحة والكسل. وسترى نفسك في لمحة الطرف وقد اتقدت في جسدك جمرة الشباب وجرى في عروقك دم الصبى.

فاوست :

دعني لحظة ريثما أنظر مرة في تلك المرآة! إن مغناطيس حسن تلك المرأة يجذبني بقوة لا تقاوم.

إبليس :

لا داعي لهذا! وبعد قليل سأريك أجمل نساء العالمين فتراها وجهًا لوجه (همّا).

لعمري بعد أن سرت حميا ذلك الشراب في جسدك. فكل امرأة تراها حورية فتانة.

(٧)

طريق

(فاوست – ومرغريت مارة)

فاوست :

أيتها الحسناء الشريفة الحسب! أتأذنين لي أن أرافقك إلى منزلك؟

مرغريت:

ما أنا حسنا. ولا شريفة الحسب. وفي قدرتي أن أذهب وحدي إلى البيت (ثم تتخلص منه وتمضي)

فاوست :

تباركت اللهم! أي حسن هذا الحسن وأي ملاحة قد صبت على هذه الطفلة!

وهل وقعت عين على مثل هذا الجمال؟

يا عيون المها وطهر العذارى قد أسرت النهى ففكي الأسارا
يا خدودا تنير وسط الدياجى وترد الليل البهيم نهارا
يا شفاه المرجان هلا تبسمت لصب في سحر حسنك حارا
يا شفاء الصدر الكليم أنيلي مغرمًا لا يطيق عنك اصطبارا
أنفورًا مني ولله ما أحلاك لما أكثرت مني النفارا

افعلي ما أردت لابد لي منك فأقضي من حبك الأوطارا

(يدخل إبليس)

فاوست :

اسمع! لابد أن تأتيني بهذه البنت!

إبليس :

أي بنت تعني؟

فاوست :

التي مرت من هنا منذ قليل

إبليس :

تلك الفتاة؟ لقد كانت آتية من الكنيسة حيث قال لها القسيس إنها بريئة من كل ذنب وأن خطاياها قد غفرت. لله أبوها! لقد مررت بها وهي راكعة أما القسيس؛ فألفيتها طفلة نقية طاهرة؛ ذهبت للاعتراف وما جنت في عمرها ذنبًا؛ ولا خطرت لها المعصية ببال. مثل هذا الملك ليس لي عليه سلطان.

فاوست :

ولم لا؟ أليست قد بلغت الحلم؟

إبليس :

إنك تتكلم كأنك من كبار الفاسقين؛ الذين يقدمون على اقتطاف كل زهرة وجني كل ثمرة. وهتك كل ستر وانتهاك كل حرمة؛ لا يبالون بعفاف أو عصمة ولا يرعون في سيء إلا ولا ذمة. لكن لكل شيء حد؛ ومثل هذه الأمور لا تجوز في كل حين.

فاوست :

يا سيدي ومولاي الشريف العفيف؛ دعني من عواطفك ونصائحك؛ وأقول لك باختصار؛ أن هذه الفتاة المليحة إن لم تبت بين ذراعي الليلة فهذا فراق بيني وبينك. ولن أرى وجهك بعد اليوم أبدًا.

إبليس :

فكر ويحك فيما يعترض مثل هذا الأمر من العقبات أقل ما يلزمني من الزمن أربعة عشر يوماً حتى استنبط الحيلة التي أجمع بها بينكما.

فاوست :

لو أني أستطيع أن أهدأ سبع ساعات، لما احتجت إلى شيطان مثلك كي يساعدني على إغواء مثل تلك الفتاة الساذجة.

إبليس :

ما شاء الله! أراك تتكلم كأحد أبناء فرنسا. لكني لا أرى داعية لانفعالك هذا. تدبر الأمر ملياً! أي فائدة تجنيها وأي سرور تشعر به حين تنال لذتك لقمة باردة من غير عناء ولا مشقة؛ شتان بين مثل هذا السرور وبين ذلك الفرح الذي يملأ صدرك حين ترى الصيد بعيد المنال صعب المرام فتنصب له الشراك ثم ترصد وتترقب؛ حتى إذا حان الوقت وعلق الظبي بالحبالة؛ وثبت وثبة المنتصر واقتطفت الثمرة الحلوة وهصرت إليك الغصن الرطيب.

فاوست :

لي من قوة الشهية ما يغني عن كل هذا.

إبليس :

أقول لك قولاً لا مزح فيه ولا جدل؛ إنه يستحيل علينا أن نبلغ من تلك

الحسناء مرامنا بالسرعة التي تتوهمها؛ الشدة والعنف لا يجديان نفعاً؛ وإنما يوصلنا المكر والاحتيال إلى بغيتنا المنشودة.

فاوست :

ائتني بشيء نفيس مما يليق إهداؤه للملائكة. ثم سر بي إلى كناس ذلك الظبي. وأرني مستقر تلك الفاتنة. وهناك فلتختلس لي من بين أثوابها وأمتعتها منديلاً أو رباط جورب أو أثراً أدخره وأحرص عليه.

إبليس :

لكي أبرهن لك على شدة إخلاصي وإني لا آلو جهداً في إرضائك سأذهب بك اليوم إلى منزلها وأدلك على غرفتها.

فاوست :

وهل أراها وألتقي بها؟

إبليس :

لا! إنها ستكون في بيت جارتها؛ وفي أثناء غيابها يمكنك أن تخلو بنفسك في حجرتها فتنشق من هوائها وتتنسم عبيرها، وصدرك ملؤه الأمل بما ستنعم به في المستقبل.

فاوست :

وهل نذهب الآن؟

إبليس :

لم يحن الوقت بعد.

فاوست :

يجب أن تأتيني بهدية نفيسة.

(يخرج)

إبليس :

أهديه الآن ولم نكد نخطو الخطوة الأولى؟ حييت من بطل مقدام! إن مساعي فيك ستكلل بالنجاح.

إني أعرف أمكنة شتى كنت قد خبأت فيها منذ زمن بعيد كنوزاً نادرة. والآن فلا ستجمع خاطري ولأفكر قليلاً.

(يخرج)

(٨)

في المساء

(حجرة صغيرة نظيفة .. مرغريت تضفر شعرها ثم تعقمه)

مرغريت:

لن أتردد في بذل الشيء الكثير لكي أعرف من ذلك السيد الذي قابلني اليوم في الطريق. لقد كانت تلوح عليه سيما النجابة والنبل. وقد طلعت في جبينه أنه من بيت شريف المحتد كريم العنصر. وإلا لما كان جريئاً بهذا القدر.

(تخرج)

(يدخل إبليس وفاوست)

إبليس :

إدخل بسكون وامش بتؤدة.

فاوست :

(بعد قليل) أرجوك أن تغادرني وحدي.

إبليس :

(متأملاً فيما حوله) لعمري ليس لكل فتاة مالها من حب النظافة والإتقان.

(يخرج)

فاوست :

(ناظراً حوله) مرحباً بك يا ضياء الشفق! وأهلاً بك إذ تسكب نورك على

هذا المسكن الأمين بل هذا الهيكل المقدس..

وأنت أيها الهوى المبرح! أيها العذاب العذب! لقد شغفت مني قلباً كاد يقتله حر الظمأ لولا قطرات من ندى الأمل

أي سكون وأي صفاء قد خيما على هذا الدار! وأي تنسيق بديع وأي قناعة ورضى! وإن أعجب فجبي لهذا الرخاء وسط الفاقة وللسعادة التي تملأ هذا السجن.

(يرتمي على كرسي كبير من الجلد بجوار السرير).

أجلس الآن على هذا الكرسي الذي طالما كان متكأ للآباء والأجداد؛ يفتح لهم ذراعيه مرحباً بهم في أيام سرورهم أو محنتهم. وكم من مرة تبوأ رب الدار هذا العرش. وأقبل أبناؤه وأحفاده فأحدقوا به من كل جانب. ورب ليلة جاءت حبيبتي إلى هذا الكرسي وجثت بين يدي جدها ولثمت كفه الذابلة وقلبها يطفح إجلالاً وشكراً على هدية أهداها لها في يوم عيد أو تحفة حباها بها.

حييت أيتها الفتاة! إني لأشعر بروحك، روح القناعة والتدبير وكأنه يهمس من حولي: ذلك الروح الذي يلهمك كل يوم كيف تقومين بتنسيق هذا المنزل وتجميله. ويعلمك كيف تبسطين الغطاء على المنضدة بهذا الإتقان وتنقشين في الرمل الذي تحت قدميك رسوماً وأشكالاً[1].

بوركت أيتها اليد العزيزة، التي تحاكي يد الآلهة، لقد صيرت هذا الكوخ الحقير قصراً من قصور السماء.

---

[1] إشارة إلى عادة نثر الرمل في الغرفة (حين لا توجد أبسطة)؛ وكان يعد من زيارة الإتقان ألا ينثر الرمل بغير نظام بل بحيث يكون أشكالاً ورسوماً.

(يزيله ستراً من أستار السرير)

هذا المنظر يثير في نفسي مزيجاً من الرهبة والفرح. هنا يحلو لي البقاء ساعات طوالاً!

على هذا السرير تسنى لك أيتها الطبيعة أن تتعهدي هذا الملك الكريم وسط الأحلام الهادئة والخواطر البريئة.

هنا مضطجع تلك الطفلة! وفوق هذا الفراش امتلأ صدرها الرقيق بحرارة الحياة. هنا تعهدتها العناية وكلأتها حتى نمت وترعرت، فإذا هي زهرة ملؤها الحسن والطهارة..

وأنت يا فاوست ! أي ريح قذفت بك إلى هذا المكان الطيب؟ أي خطب خطبك. وأي غرض جئت تنشده هنا، الملك الآن قد بدأت تحزن وتندم فيا ويحك يا مسكين! لقد تبدلت وتغيرت حتى استحال علي أن أعرفك

أفي هذه الغرفة هواء سحري قد أثر في أبلغ تأثير؟ لقد جئت هنا ولا هم لي إلا أن أتلذذ وأتمتع، والآن لا أشعر إلا بمهجة تذوب وجداً. وفكر تطير به الأحلام كل مطار. فهل نحن من الضعف بحيث نتغير ونتحول كلما تغير الهواء وتبدل؟

ويلي لو دخلت الساعة وداهمتني وأنا في حالتي هذه فما يكون خطبي وكيف أكفر عن ذنبي! اللهم لا رأي إلا أن أركع أمامها وأكب على قدميها وأذوب بين يديها خجلاً ووجداً.

(يدخل إبليس)

إبليس :

أسرع بنا فإني أراها آتية.

فاوست :

هلم بنا ولن أعود بعد اليوم أبداً.

إبليس :

أتيتك بصندوق لا بأس به. فلنضعه بتؤدة حيث تحفظ ثيابها، وإني أقسم لك أنها سيطير عقلها سروراً حين ترى ما في هذا الصندوق. فإن فيه من التحف ما يكفي بعضه لاستلاب فكر الكثيرات من النساء.

فاوست :

لست أدري هل أقدم على هذا الأمر!

إبليس :

أتتردد؟ ألعلك تريد أن تستبقي الحلي لنفسك، فلئن كانت هذه نيتك فما كان أحراك أن تنتظر إلى الصباح وتوفر علي كل هذا العناء الذي قاسيته والوقت الذي شيعته.. على إني لا أظن قد بلغ بك هذا الحد. أما ترى ما أكابد وأعاني في سبيل خدمتك.

(يضع الصندوق داخل الخزانة ويغلقها)

والآن أسرع بنا، ولن يمضي زمن طويل حتى تحرز تلك اللؤلؤة وتنعم بها كما تشتهي. لكن ما بالك عابساً مقطب الجبين كأنك داخل إلى غرفة الدراسة وقد تمثلت أمامك الطبيعة وما وراء الطبيعة!

(يخرجان)

(تدخل مرغريت وبيدها مصباح)

مرغريت:

ما بال هواء الغرفة حاراً ممتلئاً بالبخار!

(تفتح النافذة)

على أن الهواء في الخارج ليس حاراً، أشعر بشيء من الضيق لا أعرف له سبباً.. عسى أن تعود الآن أمي، فإن قلبي قد استحوذ عليه الرعب وما أنا إلا فتاة ضعيفة القلب.

(تغني وهي تخلع ثيابها)

كان في ارض (طلا) [١] ملك همام
طاهر القلب وفي بالذمام
زوجه أهدت إليه قدحاً إذ رأت أن قد دنا منها الحمام
أخذ الكوب بصمت وسكون
ورآها وهي في أيدي المنون
منظر تدمي لمرآة العيون "ورب عدل منك! ما تقضي يكون"
كلما أدركه وقت الشراب
ملأ الكوب بحزن واكتئاب
هاجت الذكرى جواه فجرى دمعه بين انسجام وانسكاب
ثم حال الدهر والدهر يحول
ورأى أيامه كادت تزول

---

[١] اسم أطلقه العلماء على جزيرة أو جزر في شمال غربي أوروبا. ولعلها جزيرة ايسلنده وكانت في عرفهم هي نهاية العالم في تلك الناحية. (Ultima Thule).

وأتتـــه رســـل المـــوت، وهـــل دولـــة في النـــاس إلا ســـتدول؟

فـــدعا أبنـــاءه يومـــاً وآلـــه

وحبـــاهم ملكـــه طـــرا ومالـــه

قـــال: ملكـــي كلـــه اليـــوم لكـــم إنـــني قـــد حـــان حيـــني لا محالـــة

واتركـــوا لي ذلـــك الكـــوب. فقـــد

طالمـــا أذهـــب عـــن قلـــبي الكمـــد

لا يلامـــس بعـــد مـــوتي شـــفة لا ينلـــه بعـــد أن أقضـــي أحـــد

ورمـــى في الـــيم ذاك القـــدحا

وانقضـــى عهـــد صـــباه وانمحـــى

لم يـــذق قطـــرة خمـــر بعـــدها وصـــحا عنهـــا ولأيا مـــا صـــحا

وغـــدا والمـــوت أشـــهى مـــا يـــروم

فهـــو يشـــفي قلبـــه الـــدامي الكلـــوم

والـــردى أقصـــى أمـــاني تعـــس عيشـــه الـــدهر عـــذاب وهمـــوم

(تفتح خزانة الثياب لتضع ثوبها فتجد صندوق الحلي)

يا للعجب من أين أتى هذا الصندوق، وقد أحكمت إغلاق الخزانة. إنه لأمر عجاب. ليت شعري ماذا بداخله؟ أظن أحد الناس استعار من أمي نقوداً وتركه لدينا رهناً؛ وأرى مفتاحاً صغيراً معلقاً به فلأفتح لأرى ما فيه.

رباه! ما هذا الذي أراه؟ إني طول عمري ما شاهدت شيئاً كهذا! هذه الحلي يليق أن تلبسها أشرف النساء في يوم عرسهن. ما أشد شوقي لمعرفة صاحبة هذا الكنز الثمين! عجباً لو تقلدت هذا العقد هل يلائمني؟

(تتزين بما في الصندوق من الحلي وتقف أمام المرآة)

آه لو كان هذا القرط البديع لي. إذن لكان لي مظهر غير هذا المظهر. وماذا ينفع الشباب والجمال حين يكون الجيد عاطلاً. والجسد عارياً من كل زينة.. مسكينة من لم يكن لها مثل هذه الحلي! إن مدحها أحد أو أثنى على جمالها فهو إنما يتحسر عليها، ولا عجب فما يجذب القلوب؛ ولا يسحر الأبصار إلا الذهب اللامع والجوهر البراق. والويل لنا معشر الفقيرات المعوزات.

(٩)

متنزه

(فاوست يتمشى وهو يفكر ، ثم يدخل إبليس)

إبليس :

أقسم بالعشق المدنس! وبالعناصر الجهنمية المخربة! ويا ليتني أعرف ما هو أنكي وأنكر من هذه الأشياء حتى أسب وألعن كما أشتهي!

فاوست :

ماذا جرى؟ لقد انقلب كيانك ومسخت سحنتك؛ وما رأيت طول عمري صورة اقبح من صورتك الآن.

إبليس :

كنت أود أن يخطفني الشيطان من هذا العالم لولا أني أنا الشيطان!

فاوست :

إنك تهذي هذيان المجانين الكبار؛ كأنما اختل دماغك وطار صوابك!

إبليس :

تصور الكارثة التي نزلت!

الكنز الثمين الغالي الذي أهديناه لمرغريت: بات الآن في حوزة قيس! فإن الأم لما تناولته بيدها ونظرت إليه داخلها الرعب، وملأ قلبها الشك. وهي امرأة حاسة الشم لديها قوية؛ وأنفها ملصق أبداً بكتاب الصلاة. وهي تشم بأنفها

كل ما تقع عليه عينها. لتعلم أطاهر هو أم نجس. فحين رأت الصنيديق. أدنت منه أنفها لتشمه؛ فعلمت عند ذلك علم اليقين أنه ليس من الطهارة بمكان عظيم.

فقالت لفتاتها: "يا ابنتي! المال الحرام عذاب للروح وتدنيس للجسم؛ ورأيي أن نقرب هذا الكنز للعذراء الطاهرة. فنربح من ورائه المن والسلوى.

فلما سمعت مرغريت هذه العبارة قطبت قليلاً: كأنما أرادت أن تذكر أمها بأن الشيء، إن كان هدية، فهو مقبول على علاته؛ وأن من يهدي مثل هذا الذخر لا يكون إلا ممن امتلأ قلبه بالتقوى والإيمان.

لم تبال الأم بنظرات البنت. وأرسلت فاستدعت القسيس. فلما حضر وسمع القصة أعجبته: وظهر على وجهه السرور وقال: يا ابنتي هكذا يكون التدين والصلاح. ومن قاوم الشهوة وحارب المعصية نال الفوز والنجاح.

أما الكنيسة فلن يضيرها هذا. لأن لها معدة قوية: وكم ابتلعت دياراً وأقطاراً وأكلت الممالك بعد الممالك؛ فما اشتكت من التخمة يوماً ولا من عسر الهضم.الكنيسة وحدها يا ابنتي العزيزتين تستطيع أن تهضم المال الحرام.

فاوست :

هذا أمر شائع، وكثير من اليهود والحكام قد استطاعوا هضم المال الحرام.

إبليس :

بعد هذا تناول القسيس تلك العقود والخواتيم ورمى بها في جيبه بسكون كأنها أشياء تافهة حقيرة. ولم يبد على وجهه من الاهتمام أكثر مما لو كان الصندوق مملوءاً نقلاً. ثم وعدهما الأجر من عند الله. فتلقتا هذا الوعد بكل خشوع وتقوى!

فاوست :

ومرغريت؟

إبليس :

استحوذ عليها الاضطراب فما تدري أي شيء تصنع؛ فهي تقضي الليل والنهار وهي تفكر حيناً في تلك الحلي النفيسة وأحياناً فيمن أتى بتلك الحلي.

فاوست :

إن حزنها يؤلمني جداً. فالتمس لها حلياً أخرى أحسن من الأولى. لأنك في المرة الأولى لم تأت بالشيء الكثير.

إبليس :

أنت تحسب هذا الأمر ألعوبة هينة.

فاوست :

لا تطل الجدال. وافعل ما قلته لك! فلتهد لها حلياً جديدة ثم تذهب بعد ذلك إلى جارتها! ولتكن شيطاناً ماهراً.

إبليس :

ليكن ما تريد وسأفعل هذا كله عن طيب خاطر.

(يخرج فاوست)

إبليس :

يا عجباً لهذا العاشق الأبله! يود أن ينسف الشمس والقمر والنجوم جميعاً لو كان في هذا بعض تسلية لمعشوقته.

(١٠)

بيت الجارة "مارتا"

(مارتا وحدها)

مارتا:

سامح الله زوجي على ما ارتكبه من السيئات نحوي! أيجمل به وأنا زوجته المخلصة الوفية، أن يغادرني في هذه الدار وحدي؛ أقضي السنين الطوال في وحشة وعشاب فريسة للهموم والشجون وهو ما برح يسيح في مناكب الأرض ويتنقل من بلد إلى بلد. دون أن أخطر بباله لحظة وماذا أجرمت وقد كنت مشغوفة حباً به وما أذكر إني أسأت إليه يوماً ما (تبكي)

ويلي! ألعله قد مات! فمن لي بشهادة تثبت وفاته.

(تدخل مرغريت)

مرغريت:

سيدتي مارتا

مارتا:

مرغريت! ماذا جرى؟

مرغريت:

لا تكاد رجلاي أن تحملاني. قواي خائرة وقلبي مضطرب. إني وجدت صندوقاً آخر من خشب الآبنوس مملوءاً بالهدايا السنية والتحف البديعة ويفوق

الأول ألف مرة.

مارتا:

حذار أن تخبري أمك هذه المرة لئلا تحمله إلى القسيس فيصنع به ما صنع بالصندوق الأول.

مرغريت:

آه! انظري ما أحلاها!

مارتا:

(وهي تقلد مرغريت بعض الحلي) لله ما أسعدك من فتاة!

مرغريت:

لكني ويا للأسف لا أقدر أن أظهرها للناس، لا في الطريق ولا في الكنيسة.

مارتا:

تعالي إلي كلما سنحت لك الفرص! وهنا – في هذا المكان الأمين – تتحلين بهذه الزينة الجميلة؛ وتسيرين متبخترة أمام المرآة؛ وفي هذا ما يسر قلوبنا ويشرح صدورنا؛ ثم إن حانت لنا فرصة في يوم عيد فأظهري للناس تلك الحلي قليلاً قليلاً.. أو لا تقلدين جيدك هذا العقد الصغير. ثم تحلين أذنيك بهذا القرط الدري. ولن تعوزنا حجة نقنع بها أمك كي لا تدخل الريبة قلبها.

مرغريت:

وهل تعلمين من اهدى لنا هذين الصندوقين؟ إن قلبي مملوء قلقاً واضطراباً لهذا الأمر الخارج عن المألوف.

(يطرق الباب)

مرغريت:

رباه! أهذه أمي؟

مارتا:

(ناظرة من وراء الستر) لا إنه رجل أجنبي! ادخل

(يدخل إبليس)

إبليس :

التمس منكما الصفح عن جرأتي إن كان في وجودي ما يعكر صفاء اجتماعكما.

(يتراجع أمام مرغريت مظهراً كل تعظيم وإجلال)

أردت السؤال عن سيدة مارتا شوردلين.

مارتا:

أنا هي! فهل لديك ما تقوله لي؟

إبليس :(همساً لمارتا)

أما وقد عرفتك فلأكتف بهذا اليوم لأني أرى عندك زائرة ذات حسب رفيع. فسامحيني على هذه الهفوة؛ وسأعود إليك بعد الظهر.

مارتا: (بصوت عال)

أعلمت يا مرغريت أن هذا السيد يحسبك من بنات الأشراف؟

مرغريت:

هذا كرم منه وحسن ظن. وما أنا إلا فتاة فقيرة، وهذه الحلي ليست لي.

إبليس :

وأين تذهب الحلي بجانب هذا اللحظ الفاتك والحسن الفاتن. ما أسعدني الآن بوجودي هنا.

مارتا:

لكنك لم تخبرني أي شيء أتى بك؟

إبليس :

ليتني كنت قادراً ان أحمل إليك نبأ خيراً من الذي جئت به. لكن ما الذنب لو تعلمين ذنبي. أن زوجك توفاه الله وهو يقرئك السلام.

مارتا:

مات؟ هل ماتت تلك النفس الزكية؟ ويلي قد مات زوجي فيا لتعسي!

مرغريت:

لا تحزني أيتها العزيزة ولا تجزعي!

إبليس :

وهاكما القصة المحزنة.

مرغريت:

إني أبغض الحياة من أجل هذه الأحزان؛ ومن مثل هذا الرزء يقضي علي غماً.

إبليس :

كل صفاء يعقبه كدر. ورب عسر بعده اليسر.

مارتا:

قص علي حكاية موته.

إبليس :

لقد دفن في بلدة بادوا. وهنا لك استراحت عظامه راحة أبدية. في بقعة مباركة مطهرة في جوار القديس انطونيوس.

مارتا:

ألم تحضر معك شيئاً آخر منه؟

إبليس :

أجل! أحمل إليك رسالة جليلة كلفني إبلاغها إياك. فهو يستحلفك أن تسعى لدى القسيس لكي يقرأ له ثلاثمائة صلاة. وعدا هذا فإن المسكين لم يترك شيئاً قط.

مارتا:

ماذا تقول؟ أما أعطاك هدية توصلها إلي؟ ألم يترك لي تذكاراً أو حلية أدخرها من بعده؛ لعمري ما هذا دأب الرجال. فإن أحقر العمال ليختزن مثل هذا الشيء في حقيبته ويحرص عليه الحرص كله. مفضلاً أن يموت جوعاً على أن يفرط في حقوق زوجه.

إبليس :

يعز علي أيتها السيدة الكريمة أن أرى حزنك وجزعك. لكنه لم يكن – علم الله – من المبذرين. وقد ندم المسكين أشد الندم على هفواته وزلاته. وتولاه الحزن الشديد على جده العاثر وطالعه المنكود.

مرغريت:

واحر قلبي لبني الإنسان البائسين! سأصلي ألف مرة على روح ذلك المسكين.

إبليس :

أولى لك – وأنت ربة هذا الحسن الفتان – أن تبادري إلى الزواج.

مرغريت:

لا: هذا أمر غير ممكن بعد.

إبليس :

ولم لا؟ إن لم يكن حليلاً فليكن مؤقتاً خليلاً. ولعمري إنه لمن أكبر النعم أن يضم إنسان مثل هذا الجسم البديع بين ذراعيه.

مرغريت:

ليس مثل هذا من عادة هذه البلاد.

إبليس :

لكنه رغم هذا أمر كثير الحدوث.

مارتا:

أتمم القصة

إبليس :

كنت بجانبه وهو على فراش الموت. وما كان فراشه القض إلا مزيجاً من روث البهائم وأضغاث من الحشيش العفن. فرحمه الله لقد مات كما يموت المسيحي الصميم؛ موقناً أن أمامه حساباً عسيراً.

تذكر المسكين وهو يحتضر أحبابه وأهله فآلمته الذكرى. وصاح بي: "إني لأمقت نفسي على ما قصرت في واجبي نحو زوجتي العزيزة. فتعساً لي من شقي بائس! أن تذكر هذا الإهمال يقتلني ألماً وندماً. فيا ويلي إن لم تكن زوجتي قد سامحتني وعفت عني.

مارتا: (باكية)

رباه! إني سامحته وعفوت عنه منذ زمان.

إبليس :

ثم قال: "لكن يعلم الله أن زوجتي قد أذنبت إلي أكثر مما أذنبت إليها"

مارتا:

كذب وافتراء! يا ويحه أيكذب وهو على باب القر؟

إبليس :

إن لم يخطئ ظني فقد أصابه وهو في نزعات الموت شيء من الخوف.

قال لي: "إني قضيت حياتي في جد وسعي لكي يتسنى لي أن آتيها بالأطفال ثم بالقوت. وتأبى على بعد هذا أن آكل لقمتي في راحة وسلام".

مارتا:

وهل نسى إفراطي في الحب وإخلاصي البالغ حد النهاية. هل نسى أنه كان يعذبني ويعنيني في الليل والنهار؟

إبليس :

لا. إن هذا لم يبرح من فكره لحظة.وقد حدثني قائلاً؛ "إني لما غادرت جزيرة مالطة كنت لا أنفك أدعو لزوجتي ولأبنائي في كل صلاة. وقد أسعدنا الجد.

وبسم لنا الدهر. فصادفنا سفينة تركية مشحونة بالذخائر الثمينة والكنوز الغالية فكانت لنا غنيمة باردة فاستولينا عليها وأخذ كل ذي حق حقه. فنالني منها حظ وافر.

مارتا:

أصحيح ما ذكرت؟ أتراه قد خبأ ذلك الكنز في موضع ما؟

إبليس :

من يدري ما صنعت به المقادير. كان زوجك يجوب بلدة نابولي فريداً غريباً فأحب فتاة حسناء كانت تصاحبه وترعى شئونه وأبدت له من المودة والحب ما جعله يذكرها حتى الممات.

مارتا:

تباً للمجرم! سرق مال أبنائه وجر عليهم الفقر والشقاء. وعرضهم للحاجة القاتلة بمسلكه الشائن وعمله الدنيء.

إبليس :

حسبه أنه قد مات. ولو كنت مكانك للبست عليه الحداد عاماً كاملاً .. وبحثت في أثناء هذا العام عن عرس آخر.

مارتا:

هيهات! لن أجد في العالم زوجاً ثانياً يحاكي زوجي الأول. فقد كان عذب الروح حسن الطباع؛ وهل كان عيبه إلا أنه يحب السياحة في البلاد البعيدة؛ ويكثر من شرب الخمر ولعب القمار ومغازلة النساء الأجنبيات.

إبليس :

أحبب بهذا الطبع لو كان صاحبه يغض الطرف عنك كما كنت تغضين

النظار عنه. ولو كنت ترضين الآن مثل هذا الزوج لكنت أول المخاطبين.

مارتا:

بالله أتمزح أم تقول الجد؟

إبليس :

(لنفسه) لم يبق إلا أن أغادر هذه الدار. فإنها تريد حتى الشيطان أن يتقيد بكلمة قالها.

(ملتفتاً إلى مرغريت) وأنت يا ابنتي كيف حال قلبك؟

مرغريت:

ماذا تعني أيها السيد!

إبليس :(لنفسه)

ما أطهر هذه النفس وما أطيبها.

(بصوت عال) في رعاية الله يا سيدتي!

مرغريت:

في رعاية الله.

مارتا:

لكن قل لي قبل أن تذهب! أنا لابد لي من الحصول على شهادة مكتوبة تنبئ عن اليوم الذي مات فيه زوجي والمكان الذي دفن فيه. فإني امرأة تحب النظام والترتيب في كل شيء وأريد أن ينشر نبأ وفاته في الصحيفة الأسبوعية.

ويحق لك هذا أيتها السيدة. وسآتي برفيق لي شهد معي وفاة زوجك ، وسنتقدم بالشهادة أمام القاضي. وفي شهادة اثنين جلاء للشك وإظهار للحقيقة.

مارتا:

إذن أحضره هنا.

إبليس :

وهل نراك هنا أيتها الحسناء؟ إن صديقي فتى ظريف قد طاف أنحاء العالم؛ وهو يبدي لكل فتاة منتهى الأدب واللطف.

مرغريت:

إني أحمر خجلاً أمامك أيها السيد.

إبليس :

مثلك لن تحمر خجلاً أمام ملوك الأرض جميعًا.

مارتا:

سوف ننتظرك كلانا هذا المساء بالحديقة التي خلف منزلي.

(١١)
في الطريق

(فاوست وإبليس)

فاوست :

هل قضي الأمر على ما نشتهي؟

إبليس :

حبذا جمرة غرامك المشتعلة! عما قليل تمسى مرغريت: في حوزتك. واليوم ستراها في بيت جارتها مارتا:: تلك المرأة التي ما خلقت إلا لتكون قوادة. لكنها تطالبنا بشيء.

فاوست :

ما جزاء الإحسان إلا الإحسان.

إبليس :

تطلب منا أن نشهد أن زوجها المرحوم قد انتقل من العالم الفاني ونوى في قبره المقدس ببلدة بادوا.

فاوست :

فكرة حسنة؛ لكن لابد لنا أولاً أن نسافر إلى تلك البلدة.

فاوست :

يا لهذه السذاجة! الأمر أيسر بكثير من هذا. فما عليك إلا أن تؤدي

الشهادة من غير أن تعلم عن حقيقة هذا الأمر شيئًا.

فاوست :

إن لم يكن لديك رأي أحسن من هذا فقد فسد التدبير.

إبليس :

يا لك من قديس ورع! أهذه أول مرة في عمرك شهدت فيها زوراً وافتراء؟

ألم تتكلم في سالف عمرك عن الإله الخالق وعن العالم وما انطوى عليه من الأسرار. وعن الإنسان وما يدور بفكره أو يجيش بصدره.ألم تكن تعرف هذا كله للناس وتصفه لكل جرأة ووقاحة.. وأنت لو راجعت ضميرك لحظة لرأيت أنك لا تعلم عن هذه الأمور أكثر مما تعلم عن وفاة صاحبنا زوج مارتا:.

فاوست :

إنك كنت وما زلت أكذب الكاذبين وأكبر المضللين.

إبليس :

أجل أنا وحدي الكذاب! أما أنت حين تلقى غداً بمرغريت: وتنصب لها حبائلك وتجذبها بسحرك وحيلك وتقسم لها أنك مشغوف بها حباً.

فاوست :

وهذا صدق لا مرية فيه.

إبليس :

أجل ثم تحلف بعد ذلك أنك لن تحول عن هواها مدى الدهر. وأن وفاءك باق على مر السنين، وحبك أبدي دائم وعاطفتك فوق كل عاطفة. فهذا أيضاً كله صدق لا ريب فيه.

فاوست :

دع عنك هذا! أما إني لأشعر بحب يتأجج في صدري وأحسن عاطفة قد طغت على فكري ولبي.. وقد حرت كيف أسمي تلك العاطفة التي ملكت قيادي وسرت في لحمي ودمي فلما أعيتني الحيلة ولم أجد فيما نعلمه من الألفاظ والعبارات كلمة أنعت بها ذلك اللهيب الذي يتقد في جوانحي فوصفته بالأبدي الدائم السرمدي.

وهل هذا يشبه أكاذيبك وأباطيلك الشيطانية.

إبليس :

إذن أنا مصيب.

فاوست :

لا تطل الجدال وأشفق على رئتي.. ما علي من يريد الانتصار في جدال إلا أن يكون طويل اللسان والنفس. فهيا بنا فقد سئمت المناقشة. وإن أردت أن يكون الحق لك فليكن.

(١٢)

في حديقة

(مرغريت ممسكة بذراع فاوست وخلفهما مارتا وإبليس،وكلهم يسيرون جيئة وذهاباً)

مرغريت:

هيهات! إني أعلم يقيناً أن هذا اللطف الذي تبديه نحوي وهذا التواضع والتنازل لمخاطبة مثلي ليس إلا لتناهيك في الكره.. ومن عادة السائحين أنهم يتلطفون بكل من يلاقونه في سبيلهم. وهيهات أن يكون لك أدنى تسلية في فتاة جاهلة مثلي.

فاوست :

إني لأجد من التسلية والطرب في النظرة الواحدة من طرفك وفي الكلمة الساحرة ، من ثغرك ما لا أجده في حكمة العالم أجمع (يقبل يدها)

مرغريت:

بالغت في التلطف.. أترضى أن تقبل هذه اليد على ما بها من الخشونة والقبح؟ وما من عمل شاق لم أعمله بيدي هاتين؛ ناهيك أن أمي شديدة التدقيق والتقتير.

(يمضيان إلى ناحية أخرى)

مارتا:

وأنت أيها السيد أما تنفك في سفر ترحال.

إبليس :

مكره أخوك لا بطل. إن حرفتنا الشاقة ومشاغلنا الجمة لا تتركنا لحظة في راحة وأمان. وكم من بلد طيب يهواه القلب؛ وترتاح له النفس؛ أرغمنا جدنا العاثر على أن نتركه آسفين محزونين.

مارتا:

ربما قدرتم أن تعملوا في أيام الشباب وزمن الطيش. فتسيحون في العالم وتنتقلون من بلد إلى بلد.. أما إذا حان الحين وجاء الشيب والهرم. ومات المسكين من غير أن يتزوج فهذا هو الشقاء الذي ليس وراءه شقاء.

إبليس :

صدقت وأنا كلما أبصرت هذه العقبى استولى علي رعب شديد.

مارتا:

إذن لماذا لا تحتاط من الآن قبل أن تفوت الفرصة؟

(يذهبان إلى الناحية الأخرى)

مرغريت:

البعيد عن العين بعيد عن القلب. وإن منعك أدبك الجم عن أن تقر بهذا؛ وعما قليل تلتقي بأقرانك وأصحابك. ومن هم أكثر مني ذكاء وعلماً.

فاوست :

ثقي أيتها الحبيبة أن ما تسميه الناس ذكاء وعلماً ليس في الغالب إلا غروراً وحمقاً.

مرغريت:

أصحيح ما تقول؟

فاوست :

ليت هذه السذاجة الطاهرة تبقى أبداً جاهلة بنفسها وبقدرها الأسنى! اللهم إن صفة الاستكانة والضعة هي أعلى وأغلى ما وهبته الطبيعة الحكيمة لبني الإنسان.

مرغريت:

عساك تذكرني وتفكر في من حين إلى حين أما أن فلدي للتفكير فيك ساعات طوال..

فاوست :

أكثيراً ما تكونين وحيدة من غير رفيق ولا أنيس؟

مرغريت:

إن دارنا، على صغرها، تحتاج إلى الكثير من التعهد والعناية. وليست لنا خادم تساعدني. فتراني لا أنفك أعمل وأدأب وأجري ههنا وههنا في الصباح والمساء؛ وأمي كثيرة التدقيق والتقتير، وطاعتها فرض. ومع هذا فلسنا بحاجة شديدة إلى الاقتصاد والتقشف في المعيشة. وفي قدرتنا أن نعيش في سعة أكثر من غيرنا. فإن أبي قد ترك لنا إرثاً حسناً وداراً صغيرة في ظاهر المدينة تحف بها حديقة جميلة.. على أني الآن في راحة أكثر من قبل فأخي انتظم في الجندية وشقيقتي الصغرى توفيت. وبرغم ما كانت تسبب لي من النصب والعناء أتمنى لو رجعت إلي وعادت إلى تعذيبي من جديد. فلقد كانت قرة عين لي.

فاوست :

لئن كانت تشابهك فهي – ولا ريب – ملك من أطهر الملائكة.

مرغريت:

لقد توليت أمر تربيتها من يوم ولادتها: فنشأت على حبي والتعلق بي.كانت ولادتها بعد موت أبي بقليل. وأمي حينذاك سقيمة قد اشتد بها المرض حتى يئسنا من شفائها. إلى أن أنعم الله وزال عنها الضر شيئاً فشيئاً. فكانت من الضعف بحيث لم تقدر على الإرضاع. فانفردت أنا بتعهد الطفلة ورعايتها؟ فكنت أسقيها اللبن ممزوجاً بالماء؟ وكنت الاعبها وحدي وأداعبها. وأحملها بين ذراعي حيناً وفي حجري حيناً، حتى نمت وترعرعت.

فاوست :

فكانت لك في هذا السعادة الكبرى.

مرغريت:

أجل. وإن لم يخل الأمر من بعض التعب والمشقة. فقد كان مهدها بجانب فراشي. فإن أتت بأقل حركة انتبهت من نومي وانصرفت إليها لأرى أي شيء تحتاجه. فحيناً كنت أسقيها اللبن وحيناً كنت أرقدها بجانبي. فإن لم تسكت اضطررت للنهوض من مضجعي فأحملها بين ذراعي وأرقص بها في الغرفة حتى تسكن وتهدأ.

ثم لابد لي بعد هذا التفكير لغسل الثياب والذهاب بعد ذلك إلى السوق لشراء حاجات البيت. ثم أعود فانهمك في تأدية أعمال المنزل. وهكذا تمضي الأيام تباعاً. ما أشبه الليلة بالبارحة.. وحبذا لو كان للإنسان الجلد دائماً على تحمل كل هذا.. على أنه بعد التعب والجهد يحلو للمرء طعامه ويدرك لذة الراحة.

(ينصرفان إلى الناحية الأخرى)

مارتا:

ما أشقى حظ النساء وما أكثر ما يعانين إذ يحاولن إرشاد الرجل الأعزب إلى السبيل الأقوم والطريق الأرشد.

إبليس :

سهل على مثلك إرشادي وهدايتي إلى ما هو خير وأمثل.

مارتا:

إذن قل لي! ألم تمتد بعد إلى شيء ما؟ ألم يرتبط قلبك بعلاقة في بلد من البلاد؟

إبليس :

ما زلت أذكر المثل المشهور: الدار الفسيحة والزوجة المليحة هما أثمن من الدر والذهب.

مارتا:

لكني أريد أن أسألك: هل اشتهيت مرة في عمرك؟

إبليس :

كنت محبوباً في كل مكان، مكرماً حينما نزلت.

مارتا:

ولكني أردت أن أعرف إن كان قلبك لم يداخله هوي قط.. هوى حسيته هزلاً فصار جداً.

إبليس :

أرى أن الهزل مع السيدات من أكبر السيئات.

مارتا:

أف! إنك لم تفهم ما عنيت.

إبليس :

يسوءني هذا جداً. لكني فهمت ولا شك أنك من أطيب النساء قلباً.

(يمضيان إلى الناحية الأخرى)

فاوست :

إذن قد عرفتني أيها الملك الصغير بمجرد دخولي هذه الحديقة.

مرغريت:

ألم تلاحظ أني أغمضت عيني حياء إذ ابصرتك قادماً.

فاوست :

وهل تصفحين عن تلك الجرأة والقحة اللتين دفعتاني إلى مخاطبتك والتعرض لك عند خروجك من الكنيسة؟

مرغريت:

لقد دهشت وحرت في أمري. ومثل هذا الأمر ما حدث لي من قبل. وما من أحد يقدر أن يتهمني بسوء فسألت نفسي: ليت شعري كيف تجرأ أحد على مخاطبتي وأنا سائرة في طريقي اللهم إلا أن يكون في مشيتي ومسلكي خفة وتهتك حتى تجاسر ذلك الغريب وأقدم يريد العبث بي. وأقول لك الحق إني حين خطر لي هذا الخاطر بت حانقة على نفسي وشغلت بتأنيبها وتوبيخها عن لومك أنت وتأنيبك.

فاوست :

أيتها العزيزة!

مرغريت:

دعني لحظة

(تنحني فتقتطف أقحوانة ثم تنتزع وريقاتها الواحدة بعد الأخرى)

فاوست :

ماذا تصنعين؟ هل تجمعين باقة زهر؟

مرغريت:

لا! إن هذا على سبيل اللهو واللعب.

فاوست :

وكيف هذا؟

مرغريت:

انتظر لئلا تسخر مني.

(تنتزع وريقات الأقحوانة واحدة واحدة وهي تهمس وتهمهم)

فاوست :

بماذا تهمسين؟

مرغريت:

(بصوت مسموع وهي تنزع الوريقات) يحبني! لا يحبني

فاوست :

لله هذا المحيا السماوي البديع!

مرغريت:

يحبني؛ لا يحبني؛ يحبني؛ لا يحبني

(تنزع الورقة الأخيرة وتثب مسرورة)

يحبني!

فاوست :

أجل أيتها الحبيبة. فاعتبري ما أبدته لك وريقات هذه الزهرة وحياً سماوياً وفألا صادقاً. فهل تفهمين معنى هذا: إنه يحبك ويهواك.

(يمسك بكلتا يديها)

مرغريت:

أراني أرتعد.

فاوست :

وعلام ترتعدين؟ ليكن من نظري إليك وأمساكي براحتيك ما بنبئك عما يعجز عن ذكره اللسان: لنسلم أنفسنا إلى غرام شديد نحسه وننعم به. غرام يجب أن يبقى نعيمه إلى الأبد. غرام لا حد له ولا نهاية. فإن انتهاءه جزع قاتل وكمد ساحق يجب ألا تكون له نهاية ولا يكون له آخر.

(تضغط مرغريت على يديه ثم تتركه وتجري مسرعة. فيقف مفكراً لحظة ثم يتبعها)

مارتا: (داخلة هي وإبليس)

لقد خيم الظلام

إبليس :

صدقت وآن وقت رواحنا.

مارتا:

بودي أن تطول إقامتكما في هذا البلد؛ لولا أنه مكان رديء. فالناس هنا من ذلك الصنف الذي لا شغل له إلا التجسس على الجيران ومراقبة حركاتهم وسكناتهم؛ ثم التحدث عنهم بما لم يعلموا.. ترى أين ذهب فتانا وفتاتنا؟

إبليس :

هما كزوج القطا يمرحان هناك ويسرحان.

مارتا:

أراه يحبها كثيراً.

إبليس :

وهي تحبه. هكذا يدور الفلك.

(١٣)

كوخ صغير في موضع آخر من الحديقة

(تدخل مرغريت الكوخ وتختبئ خلف الباب واضعة أصبعها على ثغرها وهي تنظر من الثقب)

مرغريت:

ها هو آت!

فاوست :

(داخلاً) ويلك.. أهكذا تعبثين بي؟

(يرى مرغريت) أأنت هنا؟ (يقبلها)

مرغريت:

(تعانقه وتقبله ثانية) أحبك من صميم قلبي.

(إبليس يقرع الباب)

فاوست : (مغضباً)

من الطارق؟

إبليس :

صديق

فاوست :

حيوان أعجم

إبليس :

أذن وقت الرجوع

مارتا: (داخلة)

أجل أيها السيد لقد تأخرتما.

فاوست :

هل لي أن أصاحبك إلى منزلك؟

مرغريت:

ستجيء أمي لتأخذني معها. فاذهب أنت في رعاية الله.

فاوست :

إن كان لابد من الذهاب؟ فابقي في حماية الله.

مارتا:

تصحبك السلامة

مرغريت:

إلى الملتقى القريب.

(يخرج فاوست وإبليس)

مرغريت:

تباركت اللهم! أي شيء في العالم لم يحط به هذا الرجل الخطير علماً؟ وأنا أمامه كالحجر الأصم لا أقدر على الكلام وأجيب عن كل سؤال بنعم! ماذا يحببه في وما أن إلا فتاة جاهلة ساذجة.

(١٤)

غابة وغار

فاوست [١]

أيها الروح الجليل، الذي غمرني بالهبات وأنالني كل ماسألته! ما كان عبثًا أن أريتني محياك من قبل وسط شواظ من نار، فقد أحدقت بي بعد ذاك نعمك ومنحك.. جعلت هذا الكون لي ملكًا، ووهبتي القدرة على التنعم بطيباته والإحاطة بأسراره. وكشفت لي الغطاء عما انطوى فيه من العجائب، وكمن في أعماق صدره من البدائع الخفية .

وعرضت أمام عيني جماهير المخلوقات فأطلت التحديق فيها، وتعلمت كيف أحبها وأحنو عليها. وكيف أعطف على إخوتي وذوي قرباي. تلك الأرواح العديدة التي تسبح في الماء وتحلق في الهواء وتدب على أديم الثرى. .

تعاليت أيها الروح! كم جنبتني المهالك: وسلكت بي أسلم المسالك. وكم كشفت عني من غمة وأنرت لي السبل. فإن عصفت العواصف، وأخذت الزوابع تزأر وتزجر، فاجتثت دوحا من أصولها. وقذفت بها فوق الدوح الأخر فحطمتها ومزقتها. وكان لسقوطها دوي وزئير يتردد صداه بين الجبال والوديان. انتشلتني أنت من بين هذه الأخطار. وآويتني إلى كهف أمين وركن ركين.

---

[١] في هذا المنظر يعود فاوستإلى طلب العزلة، فهو لايميل إلى الشعر قليلًا حتى تعود إليه نزعته إلى الخير.. وهو في هذا المنظر يناجي الروح– روح الأرض– مناجاة لا يفسرها ماضي القصة.. وربما كان سبب هذا أن المؤلف كان يريد أن يجعل الروح دورًا أكبر في القصة. عدل عن هذه النية.. وبقيت قطع صغيرة تدل على ما كان يريده.

ثم كشفت لي الغطاء عن دخائل نفسي، فبدا لعيني ما كان كامنًا في صدري من الأسرار والآيات الخفية .

ولقد أنظر إلى البدر المنير إذ يصعد في السماء مرسلًا إلى المال تلك الأشعة التي تكن الروع وتشرح الصدر.. هناك تسبح إلى من بين جلاميد الصخر ومن بين الأحراش الرطبة أشباح فضية تمثل الأزمنة الغابرة، فتهدي خبالي الثائر وفكري الهائج المضطرب.

والآن أحس وأعلم أن ليس شيءكامل بمتاح لبني الإنسان. فإنك أيها الروح تفضلت فغمرتني بتلك السعادة، ورفعتني إلى هذه المرتبة التي قربتني من الآلهة وأدنتني من مقامهم الأسمى. لكنك ألزمتني محبة ذلك الرفيق الممقوت فبت أراني ويالالأسف وليس لي عنه غني ولا أستطيع إبعادهعني.. وأنه ليقف بإزائي ساخرًا مني وأنا من قدري أمام نفسي. ولقد يفوه بالكلمة الواحدة فيفد على كل ما منحتني وأجزلت لي من الهبات..

أثار في نفسي الشهوات الخامدة. وأوقد في قلبي نار عشق متأججة لتلك الصورة المليحة. فأميت وما تنفك في تتوق إلى الذات؛ حتى إذا نالتها ثارت تطلب سواها، وتصيح هل من مزيد

(يدخل إبليس)

إبليس :

أتراك قد قضيت وطرك من الحياة وبلفت كل ما تشتهيه ؟ لكن أما تظن أنك على مر الزمان ستسأم مثل هذه الحياة ؟ إنه لابأس في أن تجرب هذه الحال مرة، لكن لابد لك بعدها من السعي وراء شيء جديد.

فاوست :

وددت لو كان لك من شؤون هذه الدنيا ما يشغلك عني وأنا في أسعد أوقاتي.

إبليس :

لعمري ليس بشاق على أن أتركك وأمضى إن كنت تجد في الحديث. ولن تكون خسارتي جسيمة بترك رفيق وقح فظ أبله مثلك.

أنسيت أنك تكتنفني من العناء والنصب ما يشغلني آناء الليل وأطراف النهار ثم أراك بعد ذلك وقد انقلبت سحنتك، واستحال على المرء أن يعرف أي شيء يرضيك وأي شيء يغضبك.

فاوست :

تلك لهجته الصادقة؛ يريد مني أن أشكره على تعذيبه ومضايقته لي.

إبليس :

ويك يا سليل التراب، أي عيش كنت تعيشه من غيري؟ ألم أنقذك، ولو إلى حين، من وساوسك وأوهامك؛ ألم أكبح جماح خيالك الكثير الشطط؟. ولولاي لكنت فارقت هذه الكرة الأرضية منذ زمان.

ماذا يعجبك من الثواء وسط هذه الكهوف والأحجار، كأنك البومة في الوحشة والوحدة؟ أتريد أن تعيش كالسلحفاة فتسكن وسط الحشاش وتمتص غذاءك من الطحلب والطين؟.. يالها من تسلية حلوة جميلة! لعمري أن روح الدكتور لم يزل بعد في حسدك!

فاوست :

مثلك لايدرى أي قوة جديدة أكتسب من تجوالي في هذه الأماكن القفرة

ولو كنت تدركها لأبت عليك شيطانتيك أن تتركني أتمتع بها.

إبليس :

أما إنها للذة سماوية جليلة! أن ترقد فوق الصخورملتحفًا سواد الليل، تساقط عليك قطرات الندى! ثم تمد ذراعيك لتعتنق بهما الأرض والسماء. وتنتفخ وتتعاظم حتى تحب أنك صرت ربًا من الأرباب، ثم تنفذ إلى لب الأرض وباطنها. وتحس أن صدرك قد وسع العالم أجمع واحتوىكل ماصنعه الخالق في ستة أيام ثم ترتقي بك كبرياؤك تشعر بالذات لاتوجد إلا في مخيلتك. وسرعان ماتفيض روحك وتسرى في سائر الكائنات فتحس أنك قد بلغت أقصى مراتب السعادة.

ثم تختم هذا الإلهام السماوي (يعمل بيده إشارة غير حسنة) بالأمر الذي لا يصحأن أفوه به.

فاوست :

اخسأ! قبحًا لك.

إبليس :

أنت تأنف بالطبع من ذكر هذه الأشياء. ويحق لك أن تستقبحها وتقول لي اخسأ! يجب علينا ألا نذكر لذوى الأذان العفيفة تلك الأمور التي تشتهيها نفوسهم العفيفة!

والخلاصة.. إنني لا أريد أن أحرمك لذة هذا الانزواء من آن لآن لكي تخدع نفسك وتغرر بها كما تشاء؛ لكني أخالك هذه المرة قد بلغت الغاية ولئن دام لك مثل هذا العيش فإنه سائقك ولا شك إلى الجنون أو إلى الرعب والفزع.

فحسبك وارجع عن هذا. واذكر أن في المدينة حبيبتك، التي أمست حليفةالكمد والوجد؛ وقد بات ذكرك لايبرح خاطرها بعد أن تيمهاحبك وامتلأ قلبها غرامًا بك.

بالأمس كان قلبك يطفح حبًا وهيامًا.. وسيل غرامك قد طما وعلا كما تفيض الجداول إثر ذوب الجليد. ففاض الحب من قلبك إلى قلبها حتى أمسى فؤادها مفعمًا. وكأس غرامها مترعة؟ وها أنت اليوم قد نضب معين هواك.

فياليت شعري أليس الأجمل بك أيها المولى! بدلًا من هذا العظم والتعاظم بين الكهوف والغابات أن تكافي تلك الفتاة على حبها بمثله وتجازي الجميل بالجميل؟لقد باتت وساعات وحدها طوال. فهي هن لدى النافذة ترقب الحب وهي تعدو في السماء مبتعدة إلى ماوراء أسوار المدينة ثم تحاول أن تخفف آلامها بأنشودة تغنيها فلا يزداد صدرها إلا حرجًا.

وهكذا في أيامًا طوالًا وليالي أطول مابين سرور قصير المدى وحزن طويل الأمد. وبكاء كاد ألا يترك في مآقيها قطرة.. وهدوء وسكون ظاهرين من وراهما حب مضن وهوى مبرح.

فاوست :

ويك أيها الحية الرقطاء!

إبليس :

(لنفسه) هاقد بت في قبضة يدي

فاوست :

اخسأ لها اللعين أولا تذكر هذه الحسناء أمامي! احذر أن تثير حواسي للشرفة على الجنون. وتهيج في الرغبة إلى ذلك الجسد الغض.

إبليس :

إذن كيف التدبير ؟ إنها باتت تحسبك قد هربت وهجرتها. ويوشك ظنها أن يكون صدقًا.

فاوست :

أنا منها قريب وأن بعد بيننا المزار. ولن يجرح ذكرها من خاطري أبدًا.. ألا إني لأحسد الورد حين تلمسه شفتاها[1].

إبليس :

بي وأبيك! وأنا طالما حسدتك على هاتين الوردتين الناضرتين.

فاوست :

اخسأ أيها القواد!

إبليس :

حسنًا. إنك تبني وأنا لايسعنيإلا أن أضحك منك.ياسبحان الله! أتب المهنة الشريفة التي لا تعادلها مهنة؟ ونسيت أن الله قد خلق الذكر والأنثى:

أرى الحزن قد أخذ منك كل مأخذ حتى بت تتوهم أن ذهابك للقاء حبيبتك كذهابك إلى القبر.

إبليس :

إني لأجد بين ذراعيها نعيم السماء وعلى صدرها حرارة الحياة. لكني برغم هذا أحس ماهي فيه من بلاء وعذاب.

ياويلي. لقد أصبحت ذلك الشريد الطريد، بل ذلك الوحش البشع الذي

---

(1)إشارةإلىشعار من شعائر المسيحية وجسم المولى هو الخبز المقدس.

لاراحة له في الأرض ولا مأرب. والذي غدا مثل السيل الجارف يتدفق من صخر إلىصخر مندفعًا بقوة إلى هاوية سحيقة!

كانت عنى بمعزل، عائشة وسط جدران كوخ صغير قد انحصرت فيه آمالها وآلامها. فكأنما هي في عالم صغير محدود.. فجئت أنا الذي حل به سخط الآلهة ولم يكفني أن مزقت الجنادل وحطمت الصخور. فلم أرض حتى قذفت بها على تلك البائسة فدمرت بناء سعادتها!

فيا أيتها الجحيم! ما كان أغناك عن مثل هذا القربان!

أيها الشيطان أعني على تقصير أمد هذا اللقاء وان كان نزول البلاء، ضربة لازم فلينزل سريعًا! ولتعل بي أنا أيضًا تلك الكارثة التي ستغزل بها حتى يقضي علينا جميعًا.

إبليس :

ها قد اشتعلت نارك ثانيًا وغلت مراجلك! أليس الأولى بك أيها الأحمق أن تسارع إلى منزلها وتأخذ في ملاطفتها وتسليتها.. ياعجبًا لك! أكلماعجز مخيخك هذا عن التدبير ظننت أن الطريق قد انسدت والحيل قد نفدت ؟ وهل العيش إلا للجريء، الباسل ؟

إنك قد أصبحت نصف شيطان. وأنا لا أجد في العالم شيئًا أسمج منظرًا من شيطان يدركه اليأس والجزع.

(١٥)
حجرة مرغريت

(مرغريت جالسة تغزل)

مرغريت [١]

أنا– صـــــــبحي ومســــــائي
في عــــــــذاب وبــــــــلاء،
وأعنــــــــائي! واشــــــــقائي!
هــــــل لــــــدائي مــــــن دواء؟
كيـــــف لا يشــــتد خطــــبي
كيـــــف لايـــــزداد كـــــربي
كيـــــف لايحـــــزن قلـــــبي
وحبيــــــــب القلــــــــب ناء؟
بان صـــــفو العـــــيش عـــــني
قـــــرح التســــهيد جـــــني؛

---

(١)هذه الأنشودة مترجمة بتصرف.

لم يكن نار حزني
دمع عيني وبكائي
قد نبا عني الرقاد
وبرى جسمي السهاد
آه! قد طال البعاد
وشفائي في اللقاء
فمتى يسمح دهري
ويريني وجه بدري
قد أضل الحب فكري
والهوى أعقل داء.
أو ما يدنو الحبيب
فأرى العيش يطيب؟
الهوى أمر عجيب
منه سقمي ودوائي.
ما أحيلاها إذا ما
ثغره أبدى ابتسامًا!

قـــد حكـــى البـــدر التمامـــا

فياســـــــــناء وبهـــــــــاء

آه و أشـــــفى بلثمـــــه منـــــه

أو أحظـــــــــى بضـــــــمه!

ثم يقضـــــي الـــــدهر حكمـــــه

بهلاكـــــــــي وفنـــــــائي.

(١٦)

حديقة مارتا[1]

مرغريت:

عدني ياهنري!

فاوست :

كل ما أقدر عليه!

مرغريت:

قل لي ما رأيك في الديانة ؟ لست أنكر أنك من أطيب الناس وأحسنهم. لكني أخشى أن تكون قليل الإيمان.

فاوست :

دعي هذا يا حبيبتي! أنت ترينني منتبهًا بك؛ أود أن أبذل من أجل حبك لحمي ودمي. وما أريد لعمري أن أسلب أحدًا دينه ومعتقده.

مرغريت:

هذا خطأ! يجب على الإنسان أن يؤمن بالدين!

فاوست :

يجب ؟

---

(١)في هذا المنظر حاول هو "غوتيه"، أن يكون قليلًا عن معتقده الديني ولعل بعض ماجاء فيه هو من تجاربه الشعبية.

مرغريت:

ليت لي عليك بعض النفوذ؛إذن لجلتك تعظم الشعائر الدينية وتبجلها.

فاوست :

أنا أبجلها.

مرغريت:

لكن من غير حمية ولا غيرة؛ وعهدك بالاعتراف والصلاة بعيد. قل لي: هل تعتقد وتؤمن بالله ؟

فاوست :

أيتها الحبيبة! من ذا الذي يستطيع أن تبلغ به الجرأة والقحة أن يقول "أنا اعتقد بالله".. ولئن سألت القساوسة والحكماء فما يكون جوابهم إلا عبارات مبتورة غامضة كأنها ازدراء بالسائل وسخرية منه.

مرغريت:

إذن فأنت لا تؤمن بالله ؟

فاوست :

لاتسيئي فهم قولي أيها الحبيبة.. أي الناس يقدر أن ينطق باسمه؟ وأيهم يستطيع أن يقول: "أنا لا أؤمن به. وأي الوريحس ويبصر، ويسمع ويعي؛ ثم يجرؤ أن يقول: "أنا لا أؤمن به"؟ ذلك القابض على كل شيء والمسك كل شيء؟ أليس هو الممسك لي ولك ولنفسه! أما تنظرين إلى السماء كيف رفعت وإلى الأرض كيف سطحت؟ وإلى هذه النجوم الزهر تسبح في السماء، مرسلة ضياءها الأبدي المحبوب ؟ ثم إذا أطلت التحديق في عينيك فأرنو إليك وتنظرين إلى ثم لو تأملت فيما تحسينه من مختلف الشعور وما يخامر فكرك من الخواطر

والظنون وما يحيط بك من الأسرار الأبدية العديدة؛ وهي حينًا تخفي وحينًا تظهر؛ وطورًا هي جلية واضحة وطورًا مبهمة غامضة. فمن هذا كله فملىء قلبك حتى يطفح بتلك السعادة، ويستنير بذلك النور. وعندئذ فلتسمه كما تشائين، ولتدعيه بما يحلولك من الأسماء: السعادة أو القلب أو الحب أو الرب.

أما أنا فيا له اسم عندي. وكل همى أن أحسه واستشعره فالشعور هو كل شيء وما الاسم إلا صدى لا طائل تحته. أو غمام يستر عن أبصارنا محيا الشمس البديع.

مرغريت:

هذا كله حسن وجميل، ويكاد أن لا يخاف عما يقوله القسيس إلا في طريقة التعبير.

فاوست :

هذا ما يقال في كل أرض وتحت كل سماء. هذا مايحسه كل قلب ويخطر بكل فكر. ولكل لغة يؤدى بها مقصده. فلم لاتكون لي لغة أبين بها عن قصدي أسوة بالآخرين ؟

مرغريت:

حين أسمع كلامك يخيل إلى أن ليس في كلامك بأس.لكني مازلت قلقة لأني أرى قدمك في المسيحية غير راسخة.

فاوست :

ولم أيها الطفلة العزيزة؟

مرغريت:

إني لأتألم أشد الألم كلما رأيتك في صحبة ذلك الرجل!

فاوست :

ومن تعنين ؟

مرغريت:

ذلك الخلوق الذي يصحبك في غدواتك وروحاتك؛ أراني أبغضه كل البغض، وما ألمت في حياتي لشيء إلا لرؤية وجهه الكريه.

فاوست :

أيها الطفلة العزيزة لا تخافيه.

مرغريت:

إني وإن كنت لا أبغض أحدًا من الناس؛ غير أني لا أكاد أبصر هذا الرجل حتى يغلى الدم في عروقي. وعلى شدة اشتياقي لرؤيتك فإني أتنفر منه وتألم عيني لمرآه. لهذا تراني أعده من السفلة الأشقياء.

ويعفو الله عني. إن كان أخطأ ظني

فاوست :

لابد أن يكون في العالم أناس لا يسرك مرآهم.

مرغريت:

إني أكره أن أعيش مع مثله: ولو تراه إذ يدخل من الباب وعلى وجهه تارة علائم السخرية والازدراء، وطورًا يعلو وجهه العبوس والتقطيب. فمن الواضح الجلي أنه لا يأبه لأمر. وكأنما كتب على جبينه أنه ليس أهلًا لاحب ولا للثقة. وليس من تدخل الرحمة فؤادهم. وبقدر سروري وانشراح صدري للقائك وعناقك أحزن ويضيق صدري حين أراه.

فاوست :

لله أنت من ملك ثاقب النظر!

مرغريت:

لقد بلغ من بغضي له أني لو رأيته قادمًا علينا لملأ الرعب قلبي حتى ليخيل إلىأني لم أعد أحبك أنت أيضًا.وكم حاولت أن أصلي وهو موجود فلا أستطيع؛ فيزداد غيظي منه وحنقي عليه. وأعجب كيف لا تحس أنت مثل الذي أحبه.

فاوست :

أنت قد أشرب قلبك بغضه

مرغريت:

والآن لابد لي من المودة.

فاوست :

أما أستطيع أن اجتمع وإياك سويعة في هدوء وصفاء. فأسند صدري إلى صدرك وروحي إلى روحك ؟

مرغريت:

لو كنت أسكن وحدي. لجعلتك تزورني هذا المساء لكن أمي تنام معي؛ وهي إن رقدت فسرعان ما تستيقظ؛ ولو صادفتنا معًا لكان في ذلك شقائي وهلاكي.

فاوست :

الخطب يسير! دونك هذه الزجاجة فضعي منها قطرتين أو ثلاثة في شرابها ترقد بعدها رقادًا هنيئًا.

مرغريت:

إني أفعل من أجلك كل شيء؛ وعسى ألايصيب أمي من جراء هذا أي ضرر!

فاوست :

وهل كنت أرضاه لو كان فيه ما يضرها ؟

مرغريت:

إني كلما نظرت إليك لا أعرف أي قوة تجعلني طوعًا لإرادتك؛ وقد ضحيت من أجلك كل شيء حتى لم أعد أجد ما أفضل من أجل حبك.

(تخرج)

(يدخل إبليس)

إبليس :

هل ذهبت الثرثارة ؟

فاوست :

أعدت إلى التجسس؟

إبليس :

سمعت كل شيء. ورأيتك أيها الأستاذ وأنت واقف أمامها موقف التلميذ :. وهي تحيرك بأسئلتها الحقيقة، ولعل هذا قد أفادك.البنات يهمهن جدًا أن يعرفن إن كان الرجل تقيًا ومطيعًا لأوامر الدين. ويقلن في أنفسهن: إن يطأطئ رأسه للدين يطأطئ، رأسه لنا!

فاوست :

تبًا لك ولا يخطر بخاطرك الجهنمي! ألا ترى ويلك أن تلك الروح الزكية قد امتلأت بالإيمان وترى فيه وحده أقصى السعادة؛ فتألم أشد الألم إذ ترى من تحبه عاريًا من التقوى والإيمان ؟

إبليس :

أنت أيها الرجل الشهواني الجليل أصبحت تقتادك طفلة من خطام أنفك.

فاوست :

اخسأ يا سليل النار والدنس!

إبليس :

أرأيت كذلك ما لها من قوة الفراسة ؟. فهي في حضرتي تحس شيئًا لا تعرف ما هو، وترى أن من وراء قناعي هذا أمرًا خفيًا.. وهي تظن رغم هذا أني عبقري؛ بل أني ربما كنت الشيطان بعينه والآن في هذه الليلة

فاوست :

هذا أمر لا يعنيك

إبليس :

بل لي فيه من السرور نصيب.

(١٧)

لدى البئر

(مرغريت وليزا تستقيان وبيد كل منهما جرة)

ليزا :

هل أتاك حديث (بار بارا) وما فعلت ؟

مرغريت:

لا! لم يبلغ مسمعي عنها شيء. وأنا قلما اختلط بالناس.

ليزا :

اليوم أنبأتني أمرها "سيبل" لقد قضي الأمر؛ وسقطت إلى الهاوية بعد أن كانت تشيخ علينا بأنفها تيهًا وغرورًا.

مرغريت:

ولكن ماذا حدث؟

ليزا :

أمست والطعام الذي تأكله يغذى اثنين!

مرغريت:

رباه!

ليزا :

إنها لقيت جزاء ما كسبت يداها.. ألم تكن تكثر الغدر والرواح مع ذلك

الفتى؛ فيغشيان كل مكان، ويرقصان في كل ناد؛ وكانت سباقة إلى كل ملهى وملعب تريد أن تكون الأولى.. ولطالما كان يتحبب إليها بأطباق الحلوى وكؤوس الخمر وهكذا لعب الغرور بقلبها وغدت تحسب نفسها من الغواني الحسان؛ وبانت من القحة والضعة بحيث لم تكن تستحي أن تقبل منه الهدية إثر الهدية ثم كان تقبيل وتجميش. ثم انثنت وقد غادرها الزهرة اليانعة.

مرغريت:

واها للمسكينة !

ليزا :

أو تهزك عليها عاطفة رحمة؟ حين يجن الليل تجلس كل فتاة مثلي ومثلك إلى مغزلها ولا تسمح لنا الأم أن نغادر الدار.. أما هي فكانت تقضي اللياليمختليةبعزيزها؛الان على المقاعد في الطرق المظلمة لا يكترثان لمر الساعات الطوال. والآن فلتنزع عنها ثوب الكبر والغرور! ولتبادر إلى الكنيسة مرتدية لباس الذل والضراعة؛ وهناك فلتكفر عن آثامها !

مرغريت:

لكنه لا بد يتخذها حليلة.

ليزا :

إذن يكون من السذج البله. وجدير بشاب مثله أن يجد في فسيحالأرض مضطربًا ومجالًا: ولقد علمت أنه لاذ بالفرار.

مرغريت:

لعمري لقد أساء صنعًا

ليزا :

وهي أنه تسنى لها الزواج به! فلن تزداد حالها إلا سوءًا؛ فهؤلاء شباب القرية قد آلوا على أنفسهم ليمزقنالإكليل عن رأسها. ولينثرن التبن علىباب دارها[1].

(تخرج ليزا)

مرغريت: (وحدها وهي تتأهب للعودة)

ياويلي! كيف ساغ لي في سالف عمري أن أبدى السخط والغيظ من كل فتاة مسكينة زلت بها القدم! وكنت لا أجد من الألفاظ ما به أبين مبلغ حنقي وكرهي لا يرتكبه الناس من الأوزار. كان منظر الإثم يبدو لعيني أسود حالكًا كريًّها وكنت أنزه نفسي عن السقوط لمثل هذا الدرك الأسفل.

واليوم أمسيت يالتعسي. وأنا الرذيلة بعينها والإثم مجسمًا

ولكن رباه رحماك! ألم يدفعني إلى كل ذلك دافع جميل ؟ دافع عذب لذيذ.

---

(١)هذه عادة قديمة في بعض جهات ألمانيا على سبيل التشهير بمن لم تحتفظ بعفافها قبل الزواج.

(١٨)

عند سور المدينة

(في إحدى زوايا السور– في شبه محراب– تمثال العذراء الحزينة(١) Mater Dolorosaوأمام المثال أواني الزهر)

(مرغريت تضم أزهارًا في الأنية وتناجي العذراء)

رحمـــــــاك عطفًـــــــا! وأرثــــــــي لحــــــالي!

قـــــد هـــــد ركـــــني صــــــرف الليـــــالي

فـــألهمي مهجـــتي عـــزاء وأنقـــذيني مـــن الـــوبال!

وقـــد ذقـــت قـــدمًا مــــــر الخطــــــوب

كــــم مــــن شـــقاء ومــــــن كــــــروب!

عانيــــــــت رزءًا وأي رز إذ فتكـــوا بابنـــك الحبيـــب.

عرفــــــت مــــــاذا طعــــــم الهمــــــوم

وكيـــــف تبلـــــي جســــــم الســــليم

هـــي القلـــب الكلـــيم نصـــرًا مـــن قلبـــك المشـــفق الـــرحيم!

ياويـــــل نفســــــي لمــــــا رمــــــاني

(١)هو تمثال يمثل العذراء ناظرة إلى المسيح وهو مصلوب، وهو تمثال معروف شائع في البلاد الكاثوليكية.

صــــــــرف الليـــــــالي ومــــــــــا ابــــــــتلائي!
عـــذراء! رحمـــاك أنقـــذيني! فأنـــت أدرى بمـــا أعـــاني.
ياطـــــــــول حـــــــزني ويالكــــــــــــــــــربي!
مــــا بـــــين صــــدري وبــــــــين جنـــــــبي
أحـس شـيئًا. واحـر وجـدي! قــد ضــل عقلــي وجــن لــبي
قرحــــــــت جفـــــــني مـــــــن النحيـــــــب
وليســـــــــــــــطفي جـــــــوى اللهـــــــب
وكـم سـقيت الأزهـار هـذي مـن مـدمعي المسـبل الصـبيب
أقضــــــي الليـــــالي بـــــــلا رقـــــــاد
كـــــــأن فرشـــــــي مـــــــن القتـــــــاد
رحمـاك! إني أقضـي حيـاتي حليفـة النـوم والسـهاد.
أنــــــت مــــــلاذي فانقــــــــــــــذيني
مــــــن الـــــبلايا وادركيــــــــــــــني
العـار والمـوت أحـدقا بي رحمـاك رحمـاك خلصـيني!

(١٩)

في ظلام الليل

(أمام منزل مرغريت– الجندي فالنتين شقيق مرغريت)

فالنتين:

ويلى عليك يا مرغريت! لقد كنت لي بالأمس باعث فخار وشرف، وكنت أرفع رأسي تيهًا بك وإعجابًا.

لهفي على العيد الماضي! إذ أجلس وأصحابي حول مائدة الشراب؛ مصغيًا لأحاديثهم وقصصهم. فيملأ كل منهم مافيه فخرًا، ممجدًا الفتاة التي يمت إليها بسبب؛ فيرفع من ذكرها، ويعلي من قدرها. ثم يتناول الكأس مترعة فيشرب نخبها وقلبه مفعم سرورًا وزهوًا.

كنت أنظر إليهم ساكنًا هادئًا، متكئًا على ذراعي أعبث بلحيتي متبسمًا، حتى إذا انتهوا من قصصهم ومن تيههم وفخرهم، تناولت أكبر الأقداح فأترعته رحيقًا وقلت لهم: "أنتم وما جعل لك، ولكل حظه ونصيبه. لكني أناشدكم الصدق هل في البلاد كلها فتاة تعادل مرغريت إخلاصًا وطهرًا ؟ بل هل في البلاد من تليق لأن تقدم لها قدح الماء ؟"

كنت إذا القيت عليهم هذا السؤال أخرست ألسنة المادحين والفاخرين؛ وقال الآخرون: "انه لصادق: فهل زين نساء العالمين"

كان هذا شأني بالأمس. أما اليوم فما أولعني بأن أنتزع شعري من جذوره

وأحطم رأسي ضربًا في الصخر من هول ما أسمعه من وخز الملام وقسوة التأنيب وما يرميني به أقراني من أليم التهم– إن تصريحًا أو تلميحًا– وأنا جالس بينهم أتصبب عرقًا كأني مجرم أثيم.

ولعمرى ما أقدرني على مقاتلتهم وقتلهم ولكن ما أعجزني عن تكذيبهم وتفنيد مزاعمهم!

أرى شبحًا قادمًا يسير الهوينا. إن صدق ظني فهما اثنان؛ ولئن يكن هو أحدهما فأنقض عليه انقضاض الصاعقة ولن يغادر هذا المكان حيًا.

(يدخل فاوست وابليس)

فاوست :

أنظر إلى ذلك النور الضئيل المنبعث من نافذة العبد! إنه لايلبث حتينمحي ويتلاشى في ظلام الليل الدامس. وإني لكذلك أشعر كأن النور الذي في صدري قد طغت عليه ظلمات بعضها فوق بعض.

إبليس :

أما أنا فأشعر كأني هر رقيق العواطف. أتسلق سلم الحريق ثم أزحف على الجدران بصمت وسكون؛ وأعد نفسي مع هذا كله من أهل الفضل والفضيلة، لاعيب في إلا الشيء القليل من خلق اللصوص والنذراليسير من عبادة الشهوات. وهذا كله مما يبعث في نفسي ذكرى ليلة (والبورغ)، التي تحتفل بإحياها بعد غد: وهي الليلة التي يطيب فيها السهر حقًا.

فاوست :

ولكن ماخطب ذلك الكنز النفي الذي أبصرته منذ حين فرأيت له بريقًا شديدًا ؟ أليس الأولى بنا أن نبادر إلى فتحه ؟

إبليس :

لينعم بالك سلفًا، ولتقر عينك. فلقد نظرت حديثًا في ذلك الكنز فرأيته ملآنا بالدنانير.

فاوست :

هذا كل ماهنالك ؟ أليس فيه حلية أو خاتم فأقدمه للحبيبة ؟

إبليس :

أخال أني رأيت في الكنز شيئًا كأنه عقد من اللؤلؤ.

فاوست :

هذا حسن فلتحضره الآن ؟ فإني ليؤلمني أن أذهب إليها من غير هدية.

إبليس :

وهل في هذا ما يبعث على الألم ؟ إنك ستنال شيئًا بلا شيء.

والآن وقد لمعت النجوم وتألقت السماء، أريد أن أغنيك أنشودة مطربة مشجية؛ وسأجعلها أغنية وعظيةفإن هذا أدعي للتغرير بالحبيبة وإغوائها.

(يغني موقعًا على قيثارة)

كثرينأمـــــــــــــــــا بالى أرا ك وحســـنك الفتـــان يغـــرى

تـــــرين في الليــــــل البهـــــيم؛ وإنمــــــا هـــــــذا الأمـــــــر

لبيــــــت دعـــــوات الغــــــرا فجئـــــت في طـــرب وبشــــر

أقبلــــــت بكــــــرًا حــــــرة ورجعــــت- لكـــن غـــير بكـــر

***

ابنــــــــتي فلتحـــــــــذري؛ كــم مــن فــتى في لــؤم ذيــب.
مــن بعـــد مـــا يقضـــي مـــا ربـــــه يعجــــل بالهـــــروب
مـــــا إن يبـــــالى أن تعـــــا ني مـــا تعـــاني مـــن كـــروب
فحـــــذاري لا تستســـــلمي إلا الــــــزوج أو خطيــــــب

فالنتين:

من التي تريد تقليلها والتغرير بها؟ تبًالك من شقي لعين! سحقًالك ولقيثارتك (يضرب القيثارة فيحطمها)

إبليس :

لقد انكسرت القيثارة فلم تعد تصلح لشيء.

فالنتين:

بقي أن أحطم رأسك أيها الفاجر.

إبليس : (مخاطبًا فاوست)

سيدي الدكتور! تقدم ولا تقهقر!قف إلى جانبي وتتبع حركاتي! استل سيفك ثم اقتله. ودعني أنا أتولى صد ضرباته.

فالنتين:

إذن صد هذه الضربة!

إبليس :

ولم لا؟

فالنتين:

وهذه ؟

إبليس :

بلا ريب.

فالنتين:

خيل إلي أني أبارز شيطانًا! ويلي ما هذا؟ كأن يمني قد شلت.

إبليس : (لفاوست)

اطعنه الآن فهذا دورك!

فالنتين: :

أواه! (يخر صريعًا)

إبليس :

الآن قد هدأ ثائر هذا الحيوان الأعجم، أما نحن فلنعجل بمغادرة هذا المكان، لأنهم سرعان ما يجدون في طلب القاتل.أنا لا أخشى رجال البوليس لأنهم قوم سهل ارضاؤهم. ولكني أخشى عائلة القصاص الذين تقفوا أثر سافكي الدماء.

(يخرجان)

مارتا: (من نافذتها)

النجدة .. النجدة!

مرغريت: (من نافذتها)

أشعلوا مصباحًا

مارتا:

سمعت أصوات قوم يتشاتمون ويتقاتلون.

جمهور من الناس:

وهذا أحدهم قد قتل.

مارتا: (تخرج من دارها)

ويل للقتلة! هل فروا هاربين ؟

مرغريت: (تخرج من منزلها)

ترى من الذي قتلوه!

جمهور من الناس :

إنه أخوك ابن أمك

مرغريت:

رباه!إن هذا بلاء عظيم.

فالنتين:

قد أنشب الموت في ظفره، وقريبًا يقضي على القضاء الأخير. ياويلكن أيها النسوة مالك ولهذا النحيب والعويل. اقتربوا مني جميعًا وأصغوا إلي.

(يقف الجميع حوله)

أي مرغريت.. أنصتي إلى! إنك مازلت حديثة السن، ساذجة القلب؛ لاتحسنين حتى ارتكاب الرذيلة. وأني أنصح لك، مادمت قد سلكت سبيل العاهرات، أن تدخلي في زمرتهن دخولًا.

مرغريت:

أخي بالله ربك! أهكذا تخاطبني ؟

فالنتين:

ليس لك أن تذكر اسم الله .. ما مضى قد فات ولاسبيل إلى رده. وسيجري لك ماجرى لغيرك من قبل؛ بدئيين إتيان المنكر في الخفاء، لاتصرفين إلا عشيقا واحدًا. ثم لاتلبثين حتى يكثر العشاق، ويقع النطاق، ويعرفك الكثير من سكان البلدة ثم تعرفك البلدة بأسرها.

إن العار يولد سرًا، لايعلم أحد بمولده؛تدل عليه الأستار ومحيط به ظلام الليل البهيم.ويود الذين ارتكبوا العار أن لو قتلوه قتلًا ومحوه محوًا. لكنه رغم هذا ينمو ويكبر. ثم يبرز من الخفاء والظلام فيسير في رابعة النهار. وهو– على بروزه وإشهاره– لايزداد إلاقبحًا ودمامة وكلما سمج منظره وقبحت صورته ازداد في النهار تيارًا وبين الناس اشتهارًا.

لكأني بك أيتها الفاجرة وقد التقى بك في الطريق كرام الفتيان من أبناء هذا البلد؛ فولوا عنك وجوههم كأنك جيفة ممتلئة وباء وعدوى.

ولعمري كيف تطيقين أن تنظري إلى الناس. فلا تذوبين عارًا وخجلًا. وأخلق بك أن تنزعي عنك هذه السلسلة الذهبية؛ وألا تدني أرض الكنية باقترابك من المذبح المقدس، وألا ترى الناس وجهك في المحافل والمراقص.وأولى بمثلك أن تعتزل العالم وتنزوي في ركن مظلم خرب. وأن تلقي بنفسك وسط المتسولين وذي العاهات. ولكن شاءت رحمة الله في الدار الآخرة أن يعفو عنك ويصفح، فليكن حظك في الدنيا الألم المبرح والشقاء المضني.

مارتا:

أولى لك وأنت على باب الموت أن تستغفر الله ربك بدلًا من أن تفوه بهذه اللعنات والشتائم.

فالنتين:

من لي بأن أمزق جلدك إربًا أيتها القوادة الدنية. إذن لنلت من الله المغفرة على كل ما جنيت من الذنوب.

مرغريت:

أخي! إنك لتعاني أشد الآلام.

فالنتين:

دعي العويل والبكاء! إنك أوليتني أشد الآلام وأقساها يوم غادرت سبيل الطهر والعفاف .. الآن تغشاني سكرة الموت. وهأنذا سائر إلى مولاي جنديًا شجاع القلب– علم الله– شريف النفس.

(يموت)

(٢٠)

كنيسة عظيمة

(صلاة وأناشيد وتوقيع على الأرغن .. مرغريت تصلي وسط أناس كثيرين ومن خلفها ملك النقمة)

ملك النقمة[١]:

ويك يا مرغريت! كيف حالت بك الحال منذ أن كنت تأتين العبد وتقفين لدى المذبح؛ وقلبك ملؤه الطهارة ؛ فترتلين الصلوات بصوت رخيم.. كانت نفسك إذ ذاك مزيجًا من مرح الأطفال وطهارة الآلهة. فشتان مابينك اليوم وما كنت عليه في ذلك الزمن.

مرغريت ! أي خاطر يجول بنفسك ؟ أي أثم شنيع تريدين ارتكابه ؟

أتصلين الآن على روح أمك، وقد كنت أنت السبب في ورودها حوض النون بعد أن جرعتها أمرالعذاب؛ ثم غادرت روحها فرية لآلام طويل مداها، شديد وقعها.

ثم أي هذا الدم الذي يخضب عتبة دارك ؟

ثم ما هذا الذي يتحرك في أحشائك وينمو كل يوم، فترتعد فرائصك، خشية عليه وعليك مما يخبؤه لكما الزمان ؟

---

(١)يمثل ملك النقمة هنا ضمير مرغريتيؤنبها على مامنعت وما تريد أن تصنع، فقد قتلت أمها بما ألقت في شرابها من السم وتريد التحامل من طفلها عند ولادته.

مرغريت:

ويلاه! من لي بأن تنجاب عن هذه الخواطر، التي ما برحت تعاودني بالرغم مني ؟

جماعة المنشدين:

انتبـــه ويحـــك مـــن هـــذا الثبـــات!
إن يـــــوم الويـــــل والنقمـــــة آت.
يـــــترك الـــــدنيا هبـــــاء ثائـــــرًا
يخـــف الأرض ويمحـــو الراســـيان[١]
(توقيـــــع علــــــى الأرغـــــــن)

ملك النقمة :

لينزل بك الويل وليحل بك العذاب!

لقد نفخ في الصور؛ وبعثر ما في القبور. ونشر قلبك نشرًا من وسط التراب– حيث الراحة والسكون– وإنما ينشر ليعذب أشد العذاب؛ وسط السعير المضطرم.

مرغريت:

من لي بأن أبرح هذا المكان ؟ لكأني بهذا العزف يحبس أنفاسي. وهذه الأناشيد تذيب مهجتي.

المنشدون :

بـين أيـدي مالـك الملـك القـدير يقـف النـاس لـدى قـاض خطـير

(١)هذه الآيات والتي بعدها أنشودة دينة واحدة مشهورة مؤلفها رجل اسمه توماس نيلانو كان يعيش في القرن الثالث عشر.

لــيس تخفــي عنــده خافيـــة مــن جليــل أو طفيــف أو حقــير

كـل ذنـب سـوف يلقـى قسـطه من قصاص الحاكم العدل القدير

مرغريت:

إن صدري يضيق ونفسي ينحبس. وأخال هذه الأعمدة الضخمة سجنًا موصدًا على وكأن هذا السقف المرفوع يسحقني سحقًا. أريد هواء.

ملك النقمة :

وماذا يجديك الاختباء ؟ إن العار والرذيلة لا يلبثان حتى يظهرا. الويل ثم الويل لك؟ أتجرئين على أن تطلبي النور والهواء.

المنشدون :

يالتعســي عنــدها مــاذا أجيــب؟ حينمـا أسـأل في اليـوم العصـيب.

أيــن لي مــن شــافع يشــفع لي حـين لا يغـني محـب مـن حبيـب؛

حـين لا يملـك دفـع الضـر عـن نفســه القانــت والعبــد المنيــب.

ملك النقمة :

هيهات! إن القانتين إلى ربهم لينأون بأوجههم عن رؤية أمثالك.إن الصالحين يرتعدون فرقة إذا لمستك أيديهم.

ويل لك ثم ويل!

المنشدون :

يالتعسي عندها ماذا أجيب؟

مرغريت:

يا جارتي! أنجديني!

(يغمى عليها)

(٢١)

(ليلة والبورغ)[١]

(المنظر: جبال الهارتس بالقرب من قريتيشيركهSchierkeوايلندElend)

(فاوست وإبليس)

إبليس :

أما بك حاجة إلى عصا مكنسة تركبها ؟

أما أنا فما أحوجني إلى تيس[٢]أمتطيه؛ إن الغاية لا تزال بعيدة والطريق طويلة.

فاوست :

مادمت أحس في رجلي نشاطًا وقوة، فحسبي هذه العصا العقداء. وماذا

---

[١]تثير الخرافات التي كانت سائدة في العصور الوسطى إلى أن الشياطين والسحرة والساحرات والأرواح الضالة على اختلاف ضروبها وأشكالها تجتمع في الليلة الأولى من شهر مايو فوق القمة العليا من قمم جبال الهارتس بألمانيا؛ واسم هذه القمة العليا جبل بروكن Brocken أوبلوكسبرغ Blocksberg.ففي تلك الليلة (لليلة والبورغ) يؤم تلك القمة من سائر الأقطار جماهير الأبالسة والسفاريت والسحرة وهناك ينغسون في الحب واللهو على النحو الذي سيراه القارئ.. ولعل إبليس أراد أن يلهي فاوست عن الجرائم الثلاث التي ارتكبها: من تدنيه عرض فتاة إلى قتل أخيها والتسبب في تسميم أمها، فانتقل به فجأة إلى مجمع الشياطين ليسليه عن تذكر جرائمه.. وفي هذا الفصل كثير من الشعوذة ومن الترهات الغامضة ولم يكتف غونيه بأن يعرض لأنظارنا صورة الأبالسة والسحرة بل نراه قد عرض لاعيننا أفرادا من أراد انتقادهم والسخرية بهم فحصرهم هنا مع الشياطين؛ وهذا الفصل في حاجة إلى شرح كثير لن يتسع له المقام وستكتفي بالإشارة إلى الأشياء الهامة جدًا.

([٢])عصا المكنسة والتيس كلاهما من مراكب الشياطين.

يجدينا أن قصر من طول الطريق، وليس في رحلتنا هذه أشهى وأعذب من أن ننحدر وسط هذه الأودية العديدة، ثم نصعد هاتيك الصخرة، حيث يتفجر ذلك الينبوع فتندفع منه المياه بقوة ؟

إن الربيع قد أخذ يبث روحه في أشجار الكافور؛ وقد أثر حتى في دوح الصنوبر. فهل تبقى أعضاؤنا دون أن يؤثر فيها الربيع ؟

إبليس :

لست أحس من روح الربيع شيئًا. ولم تزل في جسدي بعد بقايا الشتاء القارس وأحب إلى أن يكون طريقنا وسط الثلج والجليد.

لقد أخذ قرص القمر يرتفع فوق الأفق، كئيبًا حزينًا، قد أدركه النقص واحمرت صفحته؛ فلايسطع منه غير ضياء ضئيل. حتى إن المرء ليصطدم في كل خطوة خطوها بشجرة أو صخرة فدعني أنادي أبا مشعال[1]فيرشدنا ويرينا السبيل.وهأنذا ألمح واحدًا، لهيبه متأجج.. أيها الصديق! تعال إلينا! ولا تجعل نارك تتأجج عبثًا. إنك تحسن صنعًا إن أنرت لنا سبيلنا أثناء صعودنا.

أبو المشعال:

إني لأرجو أن أوفق إلى تذليل طبعي، وكبح جماحي إكراما لكما. فإن الطريق التي أسلكها عادة شديدة الاعوجاج.

إبليس :

أجل، إنك بهذا تبغي التشبه ببني آدم..لكني آمرك باسم الشيطان أن تسلك طريقًا مستقيمًا؛ وإلا أطفأت سراج حياتك.

---

(1)ترجمة الكلمة Irrlicht والعامة تسميه (أبو مشعال) وهو في اصطلاح الخرافات عفريتيقطن النيران ويسطع منه نورًايضلل به الناس ويسير بهم إلى المستنقعات وإلى المهاك.

أبو المشعال:

يبدو لي جليًا أنك هنا رب الدار، والآمر الناهي فيها. وسأبذل من أجلككل ما في وسعي لكن اذكر أن باجبل اليوم جنة ما عليه من السحر والساحرين. وإذا كان دليلك في السير أبا المشعال، فأجدر بك ألا تتطلب منه الدقة المتناهية.

(فاوست :وإبليس : وأبوالمشعال يتناوبون الإنشاد)

لقد دخلنا عالم السحر والأحلام؛ فكن لنا دليلًا مرشدًا أمينًا.

حتى نصل بسرعة عظيمة إلى تلك الأقطار الفسيحة المقفرة

***

أنظر إلى الأشجار.. بعضها خلف بعض:

وهي تمر بنا مر السحاب

وإلى جلاميد الصخر، مشرفة على الأودية

وإلى كل جندل ذي أنف طويل

يغط غطيطًا؛ وينخر نخيرًا.

* * *

بين الصخور وبين المروج،

تنحدر الجداول والأنهار.

فهل خريرًا ما أسمعه أم غناء

أم عتابًا حلوًا بين أحباب ؟

أم أصوات تلك الأيام السماوية

التي تشتاقها النفس وتهواها ؟

إن الصدى يرن الآن،

كما تتردد ذكرى العصور الخوالي.

***

أسمع صدى أقرب إلينا:

صدى البوم والغربان والصقور،

وهي تتعب وتصيح؛ فهل بقيت كلها ساهرة؟

أهذا هو السمندر كلمنا وسط الأعشاب

بأرجله الطويلة وبطنه الغليظ ؟

وهذي جذور الأشجار، كأنها الثعابين

تلتوي من بين الصخور والرمال؛

كأنما تنشر حبائل ذات شكل غريب

لكي تزعجنا، أو تتصيدنا.

وعروق الشجر تمد إلى أرجل المارة أذرعًا طويلة.

وهذه الجرذان ذات الأشكال

والألوان قد احتشدت مجموعها وسط الحشائش والأعشاب

وطير الحباحب تطير أفواجًا وزمرًا

فتضلل الأفكار وتحير الأبصار.

* * *

لكن قل لي أنحن وقوف

أم لانزال صاعدين ؟

أرى الأشياء كلها تدور وتمور

والصغر والشجر ينظران شزرًا

وذوي المشاعل قد تكاثر عددهم وتزايد لهيبهم

إبليس :

تمسك بأذيالي، ولنصعد هذه القمة. فمن هنالك يستطيع المرء أن ينظر، في دهشة وحيرة، إلى مأمون وهو يتوقد ويتوهج في جوف الجبل(١)

فاوست :

ما أغرب وما أعجب هذا الضياء الحزين. يحاكي في احمراره نور الفجر. وهو يضيء السهول والوهاد، بل ان شعاعه ليصل حتى إلى أعمق الأودية وأقصاها. هناء أبخرة تتصاعد. وهناك دخان يتطاير: وهاهنا لهيب وهاج يسطع من خلف الضباب المنتشر. وهو حيناً يبدو كأنه خبط دقيق. وطوراً يتفجر كأنه ينبوع. وهنا تراه بنساب بين الأودية، في كثير من الالتواء والانحناء. وله فروع وشعب عديدة. ثم تراه قد تجمع وتراكم في ذلك الركن السحيق. وانظر عن كثب سناتر الشرر يتطاير كأنه رمل ذهبي منثور. ثم تأمل في تلك الأسوار الصخرية وكيف تشتعل اشتعالاً من أسفلها إلى أعلاها.

---

(١) مأمون Mammon إله النهب، ووجوده في أعلى الجبل (بروكن) كناية عن أنه من أكبر وسائل الضلال. وفي القطعة الآتية وصف لتوزع الذهب او لسوء توزيعه وتقسيمه بين الباس.

إبليس :

أترى كيف أحسن المولى مأمون إنارة القصر من أجل هذا العيد؟ ومن حسن الطالع أن قد أتيحت لك رؤية هذا المنظر. الآن أحس قدوم الضيوف أفواجاً وزمراً

فاوست :

إن هذا الاعصار الهائل يدوي زفيفه، ويضرب ناصيتي ضربات أليمة.

إبليس :

تعلق بأضلاع الصخور جيدا. والا ألقاك الاعصار في تلك الهوة السحيقة. أن هذا الضباب قد زاد في ظلمة الليل. ولو أنصت لسمعت صوت الدوح إذ تتهشم وتتحطم، فتطير اليوم منزعجة. أن أعمدة تلك القصور الخضراء الأبدية[1] تنشق وتتمزق، وفروعها تسكر وتبتر، وجذوعهاتئن وترن، وجذورها تجتث أو تنفجر. ثم تنقض جميعاً، بعضها فوق بعض، حتى تكاد تسد الهوة، والريح بينها تزأر زئيراً، وتصفر صفيراً.

ألا تسمع أصواتاً في الفضاء، منها البعيد ومنها القريب. إن أناشيد السحر والساحرين تملأ الجبل من أقصاه إلى أقصاه.

ساحرات منشدات:

الساحرات صاعدات إلى جبل بروكن،

وقد أصفر الحطب، واخضرت البذور.

هنالك تحتشد الجماهير؛

(١) أي الغابات.

ويجلس شيخ الأبالسة على رأس الجميع.

.......................!

صوت:

هاكم العجوزة (باوبو)[1]آتية وحدها، وقد ركبت ظهر خنزيرة.

المنشدات :

الشرف لمن له الشرف

تفضلي يا مولاتنا باوبو تودينا.

فهذا خير خنزير عليه خير أم.

صوت:

من أي طريق أنت آت؟

صوت :

عن طريق (الزنشتاين)[2] وهناك نظرت إلى البوم في وكرها، فحملقتفي وجهي.

صوت :

إلى جهنم أيها الصديق! ولكن مالك تخب مسرعاً.

---

(١) باوبو (Baubo) هي– في أساطير اليونان– وصيفة للربة ديمتر Demeter التي اصيبت بفقد ابنتها برسيفونPersephone فكانت وصيفتها المذكورة تجتهد في تسلبتها بالقصص والحركات المتناهية في القبح والفحش حتى ذهب عن الربة حزنها. فجعلها غوتيه فائدةالساحرات في ليلة وللبورغ.

(٢) اسم لصخرة كبرى Ilsenslein فوق جبال الهارقس

صوت :

إنها سلخت جلدي سلخاً، فأحدثت به ماتري من الجروح.

الساحرات المنشدات:

إن الطريق عريض، إن الطريق طويل.

يا عجبا لهذه الجموع الغريبة.

من كل راكب عصا مكنسية قد تحطمت

أو شوكة قد تهشمت. إن الأمهات، من شدة الزحام،

قد انفجرت منهن البطون، واختنقت الأجنة

إن الطريق عريض، إن الطريق طويل.

فريق السحرة :

نحن نسير ببط كما تمشي القواقع

والنساء قد سبقتنا بشوط بعيد.

ومتى كان الشيطان هو القصد والقبلة.

فالفاء يسبقن بآلاف الخطى

فريق آخر من السحرة

أما نحن فلا نرى هذا الرأي تماماً؛

حقيقة أن النساء قد يسبقن بآلاف الخطى

ولكنهن، مهما أسرعن وتقدمن،

فبوثبة واحدة يلحق بهن الرجال.[1]

نحن نسير ببط كما تمشي القواقع

صوت واحد (من فوق) :

انهضوا ويحكم من بين الصخور وتعالوا معنا.

صوت (من أسفل) :

حبذا لو استطعنا أن نلحق بكم إلى العلا. إننا مازلنا نغسل ونتطهر، حتى غدونا ناصعي البياض؛ وبرغم هذا تذهب جهودنا عبثاً.

المنشدون والمنشدات :

لقد خرست ألن الرياح؛ وهربت النجوم من السماء.

ويود القمر الحزين ان يستر وجهه عن العيون.

وأفواج السحرة تملأ الآفاق بأزيزها.

والشرر المتطاير من وقع خطاها.

صوت (من أسفل) :

تمهلوا! تمهلوا!

صوت (من أعلى) :

من هذا المنادي من وسط الأخدود؟

صوت (من أسفل) :

خذوني معكم! لا تتركون! قد قضيت ثلاثمائة عام أجد في الصعود. ولم أزل

---

(1) في هذه القطعة وما قبلها مقارنة ظاهرة بين الرجال والنساء في سيرهم .

عاجزاً عن بلوغ القمة. وأود لو أتيح لي أن ألحق برفقائي ومن على شاكلتي

المنشدون والمنشدات :

اركب عصاً أو مكنسة!

أركب شوكة أو أركب جدياً

يحملك كل منها حملاً.

من لم يستطع اليوم نهوضاً وتحليقاً

فقد كتب عليه الذل مدى الدهر.

نصف ساحرة (من أسفل):

لقد طال تسياري وراءكم؛ واقتفائي أثركم. ولم يزل بيني وبينكم مدى بعيد. الويل لي والثبور! أن بقيت في وطني لم أجد هناك دعة ولا راحة وهنا أكد وأكدح فلا يجدي عنائي شيئاً[١]

الساحرات المنشدات

اركب عصاً أو مكنسة!

أركب شوكة أو أركب جدياً

يحملك كل منها حملاً.

إن من لم يطر اليوم، فلن يطير أبد الدهر.

فإذا ما بلغنا القمة

فانتشروا في كل حدب وصوب!

---

(١) لعل هذه العجوز رمز لمن يحاول أمراً فوق طاقته، وكثير مما يورده المؤلف هنا رمز على معنى أو مثله. ولكن من المتعذر جداً معرفة ما يرمي إليه في كل حالة.

حتى لا يبقي حشيش أو عشب

إلا وقد غشيته جموع الساحرين والساحرات

(يهبطون جميعاً من الجو إلى الأرض)

إبليس :

الجماهير تتزاحم وتتدافع؛ وتصطخب وتضطرب، وتصفر وتزأر، وتتجاذب وتتصادم فمن نار تشتعل ؛ وشرر يتطاير، وروائح منتنة خبيثة تتصاعد. حقيقة لقد اجتمعت العناصر السحرية واحتشدت. فتعلق بأذيالي وإلا فسرعان ما يفرق بيننا. أين أنت؟

فاوست : (من بعيد)

هنا!

إبليس :

ما هذا؟ أبعدت عنى إلى هذا الحد لابد لي إذن أن أطالب بحقوقي كصاحب هذه الدار. أفسحوا مكاناً لمرور إبليس ! أفسح مكاناً أيها الجمهور العزيز! والآن أيها الدكتور تعلق بي، ولنخرج من بين هذا المزدحم بوثبة واحدة! لم أعد، حتى أنا، قادراً على تحمل كل هذا. تعال فأني أرى هناك في تلك الناحية شيئاً يسطع نوره، وله بريق يجتذبني نحوه اجتذاباً. فهلم بنا ولننحدر إليه من بين هذه الأدغال.

فاوست :

أني لأعجب منك يا روح التناقض! أبعد أن كابدنا كل هذا العناء في ليلة ، والبورغ من أجل الوصول إلى قمة جبل (بروكن) تريد الآن أن ننزوي في مكان منعزل؟

إبليس :

أنظر ويحك إلى تلك الشعلات من النار، ذات الألوان البديعة! هنالك نادٍ صغير كله سرور وفرح. وإنما يكون اللهو والطرب في المجتمع الصغير.

فاوست :

كنت أود البقاء بأعلى الجبل. وهأنذا أبصر هناك نيراناً تتأجج، ودخاناً يتصاعد والجماهير قد لبت داعى الشرور. فلا بد أن تكون هنالك ألغاز تحل وأسرار يكشف عنها الغطاء.

إبليس :

وهناك أيضاً عقد لن تحل بل تزداد تعقيداً. فدع العالم الكبير يموج بعضه في بعض. ولنلجأ إلى مكان هادئ أمين.. وكم من عالم صغير في داخل العالم الكبير؛ كما قيل في المثل المأثور.

في هذا الوادي الصغير أرى ساحرات في عنفوان الشباب، عاريات من الثياب. وساحرات عجائز قد لبسن ثيابهن، حزماً منهن وعقلاً. فتعال إذن وتلطف بهن، فإن هذا لا يكلفك إلا عناء قليلاً؛ وستجني من ورائه لذة كبرى. وكأني أسمع موسيقاهن تعزف عزفها الملعون.. لكنا سنعتاد سماعه، فهل بنا إليهن، وسأسير أمامك لكي أريك الطريق.

ها نحن أولاً، قد وصلنا! أنظر إلى ما حولك! أترى أنه ليس بالمكان الصغير كما كنت تظن. وإن الطرف يكاد إلا يبلغ مداه، ففي صف واحد أرى مائة نار تستعر استعاراً. وقد اجتمعوا حولها يرقصون ويطربون؛ ويطبخون ويشربون ويتنازلون. فهل في العالم ما هو أحسن من هذا ؟

فاوست :

والآن أتريد أن تظهر أمامهم كساحر أو كشيطان؟

إبليس :

إني وإن كنت اعتدت أن أسير متخفياً في لباس بسيطة بيد إني في أيام الأعياد الكبرى لا أجد بأساً في أن يظهر المرء في حلله وأوسمته الرسمية. حقيقة إني ليس لي وسام (ربطة الساق)؛ لكن أقدام الخيل التي لي يعرفها هنا الخاص والعام. أترى ذلك الحلزون الذي يزحف نحونا؟ أنه قد استطاع برأسه الممدود أن يتعرف خبيئة أمري، و يشم رائحتي. فلو إني أردت التنكر هنا لما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

فلم بنا ولنطف بهذه النيران. ولأكن أنا لك واسطة ولتكن أنت الخاطب (ثم يخاطب جماعة جالين حول نار في عزلة عن الجميع).

أيها الشيوخ الكرام! ما بالكم قد انتحيتم ناحية عن الجميع؟ وما أجدركمبأن تكونوا وسط المعمعة والهياج؛ وحبكم عزلة حينما تكونون في منازلكم[1].

قائد:

من ذا الذي يجعل الأمم موضعاً لثقته؟ أن الإنسان مهما قدم لها من جليل الخدمات، فما برحت الأمم، دأبها دأب النساء، لا يحلو في نظرها غير الشباب.

وزير :

اليوم قد حاد الجميع عن جادة الصواب. فيا حبذا العهد القديم يوم كنا

---

(1) هذه الجماعة رمز يمثل لنا نفور الجيل القديم من الجيل الحديث، تلك الظاهرة الابدية

نحن السادة، وليس من فوقنا أحد. كان ذلك العهد هو العصر الذهبي.

حديث النعمة :

على أنا لم نكن من البلاهة بحيث لم تنتهز كل فرصة سائحة. ولكم أقدمناعلى ارتكاب مالا يرتكب. أما الآن فقد حالت الحال. وضاع من يدنا كل شيء؛ في وقت نحن أحوج ما نكون فيه إلى الاحتفاظ بمناصبنا.

مؤلف :

أني لنا اليوم أن نجد في العالم من يستطيع أن يقرأ كتاباً ممتلئاً بالحكم الجليلة وهؤلاء الأحداث ما يرجوا يحسبون أنفسهم آية العقل والذكاء. ويسخرون ممن هم أكبر منهم سناً وأكثر تجربة.

إبليس : (ظاهراً فجأة بمظهر الشيخ الهرم)[1]

أني أحس أن العالم مشرف على الزوال. وأن اليوم الآخر قددنا. وهأنذا قد معدت هذا الجبل للمرة الأخيرة. وما دمت قد ساءت بي الأحوال، فلا بد أن يكون العالم كله مشرفاً على الدمار!

ساحرة تبيع تحفاً نادرة :

أيها السيدان لا تمرا بي مسرعين؛ بل انتهز هذه الفرصة. وقفا لحظة لتنظرا ما لدي من بضاعة فريدة وتحف عديدة أن في حانوتي الصغير من الهدايا ما ليس له في العالم نظير. وما من شيءلدى إلا وقد أوقع بالإنسان أو بالعالم أذى مبرحاً، أو ضرراً فادحاً. فلاخنجر إلا وقد سال منه الدم ألقاني مدراراً: ولا قدح إلا وقد انصب منهالسم الزعاف في أجسام ممتلئة صحة وقوة. وما من حلية في حانوتي إلا وقد استخدمت في استغواء زوجة وفية حتى خانت حليلها. ولا

(١) تهكماً من هؤلاء الشيوخ وتقليداً لهم

سيف إلا وقد استل في القتل غيلة وغدراً

إبليس :

أيتها الخالة. ما معني قد فات.. والذي فات مات. فلا ترجعي بنا إلى الماضي بل أتينا بشيء جديد. فإننا قد سئمنا كل قديم.

فاوست :

إن صدق ظني فما نحن اليوم إلا في سوق كبيرة.

إبليس :

القوم يموج بعضهم في بعض. ويتسابقون ويتدافعون.

فاوست :

ولكن من هذي؟

إبليس :

أنظر إليها جيداً! هذه (ليلات) زوجة آدم الأولى.[1] احذر أن يستهويك شعرها الجميل. الذي لا تتقلد حلية سواء.. وكم من فتى أغواه حسن تلك الغدائر فلم يستطع من شراكها خلاصاً.

فاوست :

هناك اثنتان جالستان. احداهما عجوز شمطاء. والاخرى غادة حسناء وقد رقصتا من قبل رقصاً جميلاً.

---

(١) في بعض روايات العبرانيين أن آدم تزوج أولاً (ليلات) Lilith وبعد أن هجرته تزوج بحواء. واصبحت ليلات شيطانة. والأساطير تعزو إليها أنها تحب التغرير بالفتيان فتوقعهم في شراك غرامها حتى يموتوا حياً بها ويقال أن من تصرعه يمت وحول قلبه شعره من شعورها الجميلة قد ربطت بها قلبه حتى اختنق.

إبليس :

ليس اليوم يوم قعود واستراحة. الآن يبدأ الرقص من جديد. فهلم بنا ولندخل المعمعة.

(يرقص إبليس : مع العجوز وفاوست :مع الحسناء)

رأيت ليلة في منامي شجرة من التفاح

وقد تدلى منها تفاحتان جميلتان.

فاستهواني منظرهما فتلقت إليهما(١)

الحسناء

أن ولوعكم بالتفاح أمر قديم،

من يوم أن كنتم في الفردوس.

وأني لأهتز سروراً وطرباً،

لأن هذه الثمار في حديقتي أنا أيضاً.

إبليس : (راقصاً والعجوز)

رأيت ليلة حلماً خبيثاً. شاهدت فيه شجرة قد انشقت وكأن فيها....

العجوز:

إني أقدم خالص التحية للفارس المقدام ذي الحوافر.

....

....

(١) الغربيون يشبهون النهود بالنفاح، كما تشبه في بلاد أخرى بالرمان. والتفاحة في رأي البعض هي الشجرة التي أكل منها آدم وحواء.

بركتو فانتازمست[1] :

ويلكم أيها الملاعين! ما هذه الجرأة المدهشة. ألم تقل لكم منذ زمن بعيدأن الأرواح ليست بالشيء الذي يبدو للعينين أو يمشي على رجلين؟ ولم يكفكم هذا بل أنتم أيضاً ترقصون كما نفعل نحن معشر الآدميين.

الحسناء :

ما شأن هذا المخلوق هنا؟

فاوست :

إنه موجود في كل مكان. ولا هم له إلا أن يفتقد الرقص والراقصين. فإن بداله في رقصهم أمر لم يتسعإدراكه لفهمه عده شيئاً مستحيلاً ، ولا يحفظه في العالم شيء، كأن يرى الناس تمشي إلى الأمام. أما إذا طفقنا ندور في حلقة محدودة، كما يدور هو حول طاحونته القديمة. فهذا يرضيه ويشرح.صدره. وخصوصاً إذا امتدح الناس فيه هذا الجمود وأثنوا عليه.

بركتو فانتزمست:

ألا تزالون ها هنا؟ أن هذا لشيء عجاب يجب أن تتفرقوا ويلكم! ألسنا الآن في عصر العلم والعرفان؟.. ولكن عصبة الشياطين لا تخضع لقاعدة أو

---

(1) Proktophantasmist كلمة من اختراع غوتيه معناها الرجل الذي يتخيل بمؤخره.ويرمز بهذا الاسم إلى رجل معاصر له من برلين أسمه الحقيقي نيقولاي Nicolai وهو كاتب سخيف وبائع كتب. كان يزعم دائماً أنه لا يعتقد في الخرافات. ويطلب من كل مؤلف أنلا يذكر الشياطين أو الأرواح في كتابة ما.
ولسوء حظ هذا الرجل أصيب بمرض عصبي جعله يتخيل أنه يرى اشباحاً لاوجود لها فجعل يعالج نفسه بأن يضع العلق على مقعدته حتى شفي. ولهذا اخترع له غوتيه ذلك الاسم.
ويدعوه في الفصل التالي بالسائحالمحب للاستطلاع. لأنه كتب كتابا غاية في السخف يصف فيه سياحة ساحها. ونيقولاي هذا مثال للرجل الصغير، ذي الأفكار التافهة يريد أن يرغم سائر الناس على الخضوع لآرائه وافكاره.

سنة. ونحن على شدة ذكائنا وعقلنا قد رأينا العفاريت في بلدة (تيجل). وقد طالما كنست ساحتي من الأوهام والخزعبلات، فما تزداد إلا قذارة! أن هذا لشيء عجاب.

الحسناء :

إذن فلتكفف عن مضايقتنا؟

يركتو فانتزميست :

إني أقول لكم أيها الشياطين جهاراً، بأنني لا أطيق استبداد كم هذا. وعقلي لا يخضع لهذه السخافات.

(الرقص لا ينقطع)

أرى جهودي اليوم تذهب كلها أدراج الرياح. فلم يبق أمامي سوى الاكثار من الرحلات والأسفار. ولعلى أستطيع– قبل الممات– أن أنتصر على الشياطين وعلى الشعراء جميعاً.

إبليس :

إنه سيذهب الآن إلى مستنقع قريب من هنا. فيجلس فيه لحظة، فيأتي العلق فينشب بمقعدته ولا يزال يمتص من دمه، حتى يداويه من ألم العفاريت ومن رؤية الشياطين.

ولكن (مخاطباً فاوست الذي كف عن الرقص) ما بالك قد غادرت الغانية التي كانت تنشدك تلك الأغاني العذبة وأنت ترقص معها؟

فاوست :

بينا أرقص معها وثبت من فمها فأرة حمراء

إبليس :

هذا لعمرك شيء حسن؛ وأجدر إلا يحزنك حدوثه. وحسبك أن المارة لم تكن رمادية اللون كسائر الفيران. ومن ذا الذي يبالي بهذه الأشياء التافهة في ساعة الغزل والغرام؟

فاوست :

ثم أبصرت أمراً عجباً.. هناك، على بعد عظيم، فتاة حسناء شاحبة اللون واقفة وحدها.. انها تتدافع في سيرها كأن في رجليها سلاسل وأغلالا– ولقد يخيل إلى أنها شديدة الشبه بمرغريت.

إبليس :

دع عنك هذه الأوهام. التي لا طائل تحتها. وهل رأيت إلا صورة مسحورةووهماً يتمثل لعينيك؟ وليس بنافع أحداً أن ينظر إليها. فإنها أن أطالت التحديق في أحد جمد الدم في عروقه. بل ربما استحال صخراً أصم. ومن قبل ماسمعت بالميدوزا[1]

فاوست :

أجل أن عينيها حقيقة كأعين الموتى، الذين لم تغمض أجفانهم يد صديق ساعة الوفاة. ولكن هذا هو الصدر بعينه الذي كانت تسنده مرغريت: إلى صدري وذاك هو الجسد الغض الذي طالما نعمت به.

إبليس :

إن هذا إلا سحر أيها الأبله الذي سرعان ما ينخدع؟ فالميدوزا تبدو لكل أمريء في صورة محبوبته.

---

(1) الميدوزا في أساطير القدماء مخلوقة شعورها تعابين ومن يرها يستحل حجراً.

فاوست :

أني أحس مزيجاً من النشوة والحزن المبرح. ولا أستطيع أن أحول عيني عن هذا المنظر. وعجيب أن يكون حول هذا العنق الجميل خيط أحمر قانيء، دقيق جداً كأنه نصل سكين.

إبليس :

وأنا أيضاً أرى هذا. ولقد تبدو الميدوزا وهي تحمل رأسها تحت إبطها لأن (پرسيوس) قد جذ ناصيتها.. أراك مازلت ولوعاً بكل ما يصوره لك الوهم والخيال. فاطرح عنك هذا وتعال بنا نصعد هذا الكثيب. فنحن في مكان لايقل عن بستان (براتر) بهجة ورواء[1] ولهواً ولعباً؛ وإن صدق ظني فهذه دار تمثيل.

ماذا عندك ياهذا ؟

رئيس الخدم :

سنبدأ الساعة تمثيل قطعة أخرى. وهي آخر القطع السبع التي تمثل اليوم. ومن عادتنا أن نقدم للجمهور قطعاً كثيرة. وكلها قد كتبها قوم هواة. ويمثلها أيضاً قوم هواة.. ولا تؤاخذونيان رجعت الساعة فأني أريد أن أرفع الستار.

إبليس :

يسرني أن ألقاكم هنا على قمة (بلوكسبرغ) فهنا موطنكم الحقيقي.

---

(1) حديقة براتيرPrater هي المدينة الكبرى لمدينة فينا.

(٢٢)

رؤيا ليلة والبورغ

(حفلة العرس الذهبي لابيرون وطيطانيا(١))

(قطعة تمثيليه)

رئيس المسرح:

اليوم قد أرحنا (ميدنج) وفتيانه البواسل[٢]، فلم تكلفهم أن ينقشوا لنا المناظر الجميلة والستائر المزركشة. فحسبنا اليوم منظراً هذا الوادي الرطب وهذا الجيلاالقدم.

المنادى :

ليس اليوم يوم العرس الذهبي، لمضي خمسين عاماً؛ بل لأن الخصام قد زال وحل محله الوفاق والوئام.

---

(١) هذه هي القطعة التي أشير إليها في آخر للنظر السابق، وهي تمثل أوبرونOberon وزوجته Titaniaوهما ملك وملكة الجن. وكان بينهما خصام ثم اصطلحاً ويحتفل الآن بهذا الصلح؛ فاجتمعت فرق المنشدين والموسيقيين والراقصين. وكذلك جهور كبير من المتفرجين. وهذه القطعة كلها لاعلاقة لها بقصه فاوست. وسبب وجودها هنا أن غوتيه وشيلر نشرا مرة قطعاً شعرية كانا ينظمانها بيتين بيتينوسمياها اكسنيا Xenia وفي كل بيتين انتقاد لفكرة أو لشخص أحد المعاصرين. وقد أحدث نشر هذه القطع ضجة كبرى من الكتاب وقتئذ. فنظمغوتيه مجموعة أخرى من هذه القطع. ولم يرد شيلر أن ينشرها في مجلة كان يصدرها. وقرر غوتيه أن يجعل لها مكاناً في (فاوست): فأوجد لها هذا المنظر. والقطع انتقاد لأفراد من معاصري غوتيه أراد أن يسخر منهم وأكثرهم الآن قد نسى ذكره. فأصبحت القطع غامضة جداً ويجمل بالقارئ أن يمر بها مراً. خصوصاً أن ليس لها أدني دخل في قصة فاوست

(٢) ميدنج رجل كان ينقض الستائر والمناظر في عصر غوتيه

أوبيرون :

ياعصبة الأرواح! لقد عاد الصفاء فربط بين قلبي الملك والملكة.. فإن كنتم تشاركوننا في السرور والسعادة فأظهروا ذلك الساعة!

يوك (العفريت المازح):

لقد جاءكم (بوك) يسعى ويمرح، و يجر رجليه على الأرض جراً ومن خلفه مئات العفاريت جاءوا لمازحوه ويضاحكوه.

أريل (عفريت):

يهتف أريل بالأناشيد الشجية، ذات الأنغام السماوية الصافية ولئن جذب غناؤه الأشرار، فلقد يجذب الأخيار أيضاً.

أوبرون:

تعلموا منا جميعاً! إن أردتم أن يسود الحب والوئام بين الزوجين فما عليكم إلا أن تفرقوا بينهما؛ كيما يعود الحب فيؤلف بينهما.

طيطانيا:

إذا ساءت فقال الرجل، أو ساء خلق المرأة، فأمسكوا كلا منهما بقوة واذهبوا بأحدهما إلى الشمال وبالآخر إلى الجنوب

المنشدون (قوة) :

ليس المنشدون اليوم سوى عصبة الذباب والبعوض ومن على شاكلتهم.. وزمرة الضفادع في الخمائل، والجنادب وسط الحشائش.

أحد المنشدين :

انظروا إلى القربة ذات الصوت الرنان. وكأنها رغوة صابون قد نفخ فيها

ومن أنفها الأفطس تتصاعد النغمات الغريبة، والأصوات العجيبة.

عفريت في دور النمو :

ليس لهذا المخلوق الصغير سوى أقدام العنكبوت، وبطن كبطن الضفادعوأجنحة صغيرة متضمرة، فإن لم يكن بعد حيواناً صغيراً؛ فهو– على الأقل– قطعة شعر ضئيلة.

زوج صغير[١] :

أي قصار الخطى! إني لكما الوثوب إلى العلا، ما بين قطرات الندى المتساقطة، وأريج الأزهار الفاتح؟ سيراً ماشئتما بخطأ كما الضئيلة. فهيهات أن تصعدا في الهواء شبراً.

سائح محب للاستطلاع[٢] :

أليس هذا كله ترهات باطلة؟ وإلا فهل أصدق ماتراه عيني بأن أو برون ذلك الألة الجميل واقف أمامي؟

أورثوذكس[٣] :

إنه ليس إلهاً بل شيطاناً رجيماً مثل آلهة اليونان وأن لم تكن له ذنب أو مخالب

فنان من الشمال[٤]

لئن كانت أعمالي التي أقوم بها ناقصة مبتورة. فاعذروني فقد شغلني

---

(١) زوج هنا أي اثنان والصغر ليس صغر الحجم. بل صغر القدر الأدبي. وقد أراد غوتيه هنا أن يسخر من أخوين انتقداه هو وشيلر.

(٢) هو يقولاي. وقد ذكر في المنظر السابق.

(٣) أي رجل متدين ولا يعلم من عناه غوتيه.

(٤) أي غوتيهنفسه وكان يفكر في ساحته إلى إيطاليا

رجل محب للحشمة:

أن نكد الطالع ساقني إلى هذا المكان الكريه، حيث الوقار منبوذ والحشمة ضائعة. ساحرتان فقط تلبسان ثياباً، والأخريات عاريات!

ساحرة شابة :

ليس الثياب لعمرك إلا للعجوز الشائبة. أما أنا فأجلس عارية على ظهر جدييوأرى العالم جدي الغض.

عجوز :

لنا من أدبنا ووقارناماً يمنعنا من مجادلة مثلك.وأني لأتمنى لك المطب العاجل رغم شبابك الناضر.

رئيس المنشدين :

ويحكم معشر الذباب والبعوض، لا تتجمعوا حول الغادة العارية؟

وأنتم أيها الجنادب والضفادع؛ لا تخرجوا عن أصول النغمة؟

المذبذب (ناظراً إلى أحد الفريقين) :

جمع من العرائس ألحان، ليس وراءهن للنفس مطمح.

وشبان هم خيرة الرجال ومنتهى الآمال.

المذبذب (ملتفتاً إلى الفريق الآخر) :

لأن لم تنشق الأرض فتبتعلهم جميعاً، لأسرعن أنا إلى الجحيم فألقي بنفسي فيهاأكسنيا[1]

---

(1) أصل معنى كلمة اكسنيا هو الهدايا التي تقدم للضيوف. فاستخدمها شيلروغوتيه بمعنى تلك الآيات اللاذعة التي نشراها.

نحن الحشرات الصغار، ذات المقارض الحادة.. جئنا لكي نكرم ابانا ومولانا إبليس : بما يليق بمقامه الأسمى.

هننجس[١]:

أنظر إليها وقد تجمعت واحتشدت. وأخذت تمزح مزاحها الثقيل. ثم تزعم بعد ذلك انها كانت حسنة النية.

رئيس الموزا :

يحلو لي جداً أن أندمج وسط هذا الجمع من الساحرات؛ فأنهن أسهل مراساً وأسلس قياداً من آلهة الشعر والفنون.[٢]

روح العمر (سابقاً):

ما يقدر الإنسان قدره إلا الرجال الأفاضل. فتعال وتمسك بأذيالي..

فإن لجبل بلوكسبرغ قمة فسيحة الأرجاء كأنها قمة جبل (بارنلسوس)

السائح المحب للاستطلاع:

قل لي بأبيك. ما خطب هذا الرجل الجامد الذي يمشي في الأرض مرحاً وكبراً ويشم بأنفه كل شيء يراه؟

"إنه يقفو أثر اليسوعيين!"[٣]

كركي[٤] :

أحب الصيد في الماء الصافي؛ وكذا في الماء العكر. فلا تعجبوا إذا رأيتم

---

(١) Hennings كاتب انتقد إلا كنا في مجلتة المسماة روح العصر وكذلك نشر قطعة شعرية بعنوان رئيس الموز Musagetes. وغوتيه يسخر منه هنا في الثلاثة القطع التالية.

(٢) أي الموز Muses.

(٣) كان نيقولاي يبغض اليسوعيين..

(٤) رجل معاصر لغوتيه واسمه الحقيقي لا فاتر Lavater وكانت مشيته تشبه مشية السكوكي.

الرجل التدين احيانا في صحبة الشياطين والابالة.

رجل الدنيا:

ان المتدينين– وأبيك– قد اتخذوا كل شيء وسيلة لنيل مآربهم فلا عجب إذا رأيتهم هنا فوق بلوكسبرغ جماعات وزمراً.

راقص:

الآن تجي جماعات جديدة من المنشدين[1] وهأنذا اسمعهم يدقون طبولهم. فانصتوا لأصواتهم المتكررة المملة. التي تحاكي زعيق الأوز.

الفقيه:

إنهم لن ينتصروا على بالنقد والصياح. وإثارة الشكوك في صدري. فالشيطان موجود حقيقة. وإلا لما كان هناك شياطين.

الكثير الأحلام:

أن الأحلام التي امتلأ بها خيالي؛ قد استبدت بي هذه المرة أي استبداد. ولعمري لو كان كل ما أتوهم الآن صحيحاً. فأنا اليوم مخبول معتوه.

رجل الحقائق الملموسة:

أصبحت وكل ما في الوجود مصدر لعذالي واعنايي. وأراني للمرة الأولى في عمرى غير واثق من نفسي: ووشك عقيدتي أن تتزعزع[2]

مؤمن بالعجائب:

إن وجودي في هذا المكان لمن أكبر بواعث الفرح. ويسرني جداً أن أرى

---

(1) الجماعة السابقة أكثرها من الأدباء والجماعة الجديدة من الفلاسفة وأضرابهم.

(2) أي لرؤيته الشياطين والعفاريت وهو ليس ممن يؤمنون بشيء من هنا

كل هذه الجماعات ومن السهل على بعد أن أبصرت الأرواح الخبيثة أن أهتدى إلى حقيقة الأرواح الطاهرة.

متشكك :

إنهم يقتفون أثر لهيب، ويحسبون أنهم قد اوشكوا أن يظفروا بالكنوز الغالية. على إني لا أرى إلا أن الشياطين والشكوك ألفاظ متشابهة[1].. ومن أجل هذا أنا هنا.

المنشدين :

ويل لكن أيتها الضفادع في الخمائل والجنادب وسط الحشائش؟ ولعنتم من هواة للنشيد والعزف.

وإما أنتم يازمرة البعوض والذباب! فحييتم من عازفين ومنشدين

المتقلبون:

أما نحن فنلبس لكل حالة لبوسها. فإذا كنا لم تنتفع بالمشي على الأقدام فلنمشي إذن على رؤوسنا.

البائسون:

كم أكلنا فيما مضى وشربنا! أما اليوم فياويلتا! قد رقصنا حتى خرقت نعالنا وبتنا نمشي بأحذية غير ذات نعال

ذوو الشاعل:

قد أتينا من المستنقعات حيث نشأنا ودرجنا.. وعلى رغم هذا قد وقفنا هاهنا وسط الصفوف فكنا كأحسن من فيها.

---

(1) هي كذلك في الألمانية.

الشهاب الساقط:

لقد سقطت من السماء ولي ضياء النجوم اللامعة والنيران الساطعة. ثم هويت طريحاً على الثرى. فهل من آخذ بيدي فينهضني؟

الضخام الأجسام:

أفسحوا لهم مكاناً افسحوا! أنهم يدوسون الأعشاب ويسحقونها سحقاً. هم كذلك من الشياطين، على الرغم من ضخامة أجسامهم وغلظ أرجلهم.

بوك (المازح):

بأبيكم لا تمشوا في الأرض مرحاً، كأنكم فيلة أبناء فيلة؛ فليس اليوم من هو أضخم جسداً من (بوك) نفسه.

آرىل Ariel :

بما وهبتكم الطبيعة من اجنحة ومن روح، ومن مقدرة على الطيران، أناشدكم أن تتبعوني وتقتفوا أثرى إلى ذلك الكثيب الذي تكوه الورود.

المنشدون (بصوت خافت) :

لقد أخذ السحاب المنتشر والضباب الكثيف يضيآنبنور الفجر وقد هب النسيم في الخمائل والرياح في الغاب وزال كل شيء، وامحى[1]

(1) أي طلع الفجر فانتهت ليلة والبورغ وانصرفت الجن بأسرع مما احتشدت، ثم تعود قمة فاوست إلى سيرتها الأولى.

(٢٣)

المنظر: أرض فضاء

(يوم عبوس متجهم)

(فاوست وإبليس)

فاوست :[١]

واهاً لتلك الحسناء العذبة الروح! أهكذا تسقط إلى بؤرة الشقاء وهوة اليأس؟ أمثلها تترك لتهيم على وجهها زمناً طويلاً؛ طريدة مشردة؛ ثم يقبض عليها ويلقي بها في أعماق السجون، حيت تعاني أشد الويل وأمر العذاب! فيا ويحها من تعسة قد أناخت عليها الهموم وألحت عليها النوائب.

وأنت أيها الشيطان الدنيء الخائن، أتخفى عني كل هذا؟ ثم تقف أمامي مقلباً عينيك الجهنميتين– وملؤهما الحقد والضغن– في رأسك الخبيث؟ ولا هم لك إلا معاندتيومشاكستي..

أإلى السجن يذهبون بها حيث تعاني من البلاء ما يسحق الجسم ويوهن النفس ويستحيل الآن دفعه ورده؟

حيث تمسي فريسة للوساوس الشيطانية؛ ورهينة لقضاء بشري ظالم جائر. خلو من الحس وصفر من الرحمة.

يجري كل هذا فتبعدني عنه وتلهيني عن تذكره؛ تذهب بي إلى تلك الملاهي

---

(١) وقد علم للمرة الأولى بمصير مرغريت

الممقوتة للرذولة. وتخفى عني ما هي فيه من عذاب شديد وحزن مبرح. تتركها بلا نصير وسط هذه الكوارث الأليمة.

إبليس :

إنها ليست الأولى!

فاوست :

ويلك أيها الكلب! أيها الوحش البشع الصورة! رحماك أيها الروح الأبدي! أنزل بهذا الشيطان سخطك ومقتك! أعد هذه الأفعى إلى صورة الكلب الدنس. وقد رأيته يحلو له أن يتشكل بصورة الكلب في الليالي الدامسة؛ ثم يلقي بنفسه بين قدمي أحد المارة حتى إذا سقط المسكين على الأرض تعلق بأكتافه ليزيد في تعذيبه وايلامه!.. فأناشدك أيها الروح القدير إلا حولته إلى تلك الصورة التي تهواها نفسه. ثم أرغمه على أن يزحف في التراب أمامي فأسحقه برجلي سحقاً وأمحقه محقاً!

ليست الأولى! يا للويل والثبور! ويل لا يدركه العقل ولا يتصوره الحس.

لكن كان قبلها من عاني مثل ما تعانيه اليوم؛ فهل قدر لأكثر من واحدة أن تعرق في أعماق هذا العذاب؟ أما كفي أن قد كابدت الأولى هذا القاء؛ فطعمت صابه؛ وعانت أوصابه، وقاست من ويلاته مافيه تكفير عن جناية من بعدها من البائسات تكفيراً ترضاه رحمة الرب الغفور.

اللهم إن الألم يبرى جسدي وروحي من تصور ما تعانيه هذه التعة وحدها؛ وأنت أيها الشيطان تبسم سخرية واستهزاء لا تكابده الآلاف من مثيلاتها.

إبليس :

أربي مرة أخرى وقد كاد معين صبري ينضب، وجعبة حيلي تفرغ؛ إذ أراكم معشر الآدميين وقد غادركم الرشد وطاشت بكم الأحلام.. لماذا تتعاقدون

وإيانا على أمر إذا كنتم عاجزين عن المضي فيه؟ كيف تحاول أن تحلق في الجو وأن تغير من أن ينتابك الصداع؟ أكنا نحن الذين ألقينا بأنفسنا عليك وأرغمناك على مصاحبتنا أم أنت الذي رميت بنفسك علينا؟

فاوست :

اقصر ويلك! ولاتكشر لي عن أنيابك الشوهاء فإن نفسي تشمئز لمرآها.

رحماك أيها الروح الجليل! يامن تكرمت فسمحت لعيني أن ترياك!

يامن يحيط علماً بخفايا تنفي واسرار قلبي؟ لماذا ألزمتني صحبة هذا الزميل الشقي الذي لا يغتذي إلا من الشرور ولا يرتوي الأمن الدمار والخراب؟

إبليس :

عساك قد أنهيت.

فاوست :

لابد لك أن تنقذها وإلا فالويل لك! اللعن والمقت نصيبك آلاف السنين أن لم تنقذها

إبليس :

إن عقدة المنتقم الجبار قد عقدت؛ ولا قدرة لي على حلها. والرتاج الهائل قد أوصد؛ ولا سبيل إلى فتحه.

تسألني أن أخلصها؛ أينا دفع بها إلى الدمار أنت أم أنا؟

فاوست :

(يتلفت حوله وقد أخذ منه الغيظ مأخذه)

إبليس :

كأنك تريد أن تتناول الصواعق بيمينك!

لعمري إنه لمن حسن الطالع أن مثل هذا لم يتح لكم يا بني الفناء! إن النفس العاتية الظالمة إذا غدت في مأزق لا تجد ما يفرج كربتها سوى أن تسحق كل من يعترضها ولو كان من الأبرياء.

فاوست:

اذهب بي إليها! لابد من تخليصها

إبليس :

أذكر ما في سبيلك من الأخطار! أنسيت البلدة التي ما برحت تطالب بثأر القتيل الذي سفكت دمه يداك؟ إن ملائكة النقمة تسبح فوق مصرع كل قتيل؛ فلا تزال كامنة متربصة لعل القاتل يعود.

فاوست :

أمثلك يقول لي مثل هذا؟ وعلى رأسك جريرة قتل العالم بأسره! أيها الوحش البشع؛ قلت لك اذهب بي إليها وأطلق سراحها.

إبليس :

سأذهب بك إليها ولكن اذكر إني لست مسيطراً على ملكوت السموات والأرض. وإنما أفعل ما أقدر عليه. سأسعى حتى أفقد سجانها رشده. أما أنت فانتزع منه المفاتيح. ثم اذهب ففك عقالها. ولتخرجها من السجن يد آدمية. أما أنا فسأتولى الحراسة. وأعد الخيل المسحورة ثم أذهب بكما بعيداً. وهذا كل ما أستطيع عمله.

فاوست :

إذن هلم بنا!

(٢٤)

أرض فضاء

(في ظلام الليل)

(فاوست وإبليس على صهوة جوادين أدهميين وهما يخبان مسرعين)

فاوست :

ترى ما الذي يفعلونه هناك. كأنهم ينسجون حول المشنقة نسيجاً.

إبليس :

لست أدري ما عساهم يصنعون!

فاوست :

لكأني أرى أشباحاً تعلو وتهبط وتتناول أشياء فتحنيها ثم تثنيها.

إبليس :

أخالهم عصبة من الساحرات[1]

فاوست:

كأنهم يبعثرون أشياء ثم يقربون قرباناً

إبليس :

امض بنا في طريقنا.

---

(1) يم فاوست وإبليس بالمشقة التي ستشتق عليها مرغريت، وقد تجمع حولها فريق من الساحرات لكي يقربن القرابينللأرواح الشريرة. كما تقضي بذلك الخرافات الشائعة

(٢٥)

في السجن

(فاوست واقفا أمام باب من الحديد وفي إحدى يديه مفاتيح وبالأخرى مصباح)

فاوست :

أراني وقد انتابتني رعدة قد طال عهدي بمثلها. وكأني أحس من الآلام قدر ما يعانيه العالم أجمع.

لقد ألقوا بها في غياهب هذا السجن تحيط بها هذه الجدران الرطبة. وما ارتكبت لعمري من جرم سوى ما صوره لها الوهم وسولت لها الأحلام.

يمسك بالقفل ليفتحه فيسمع صوتاً من الداخل بغنى[١]

ويـــــل لأمـــــي العـــــاهره!	قــــد أســـــلمتني المنــــون
ويـــــل لهــــا مــــن فــــاجره!	ويــــل لوالـــدي الخـــؤون!
طـــــوبى لأخـــــت راحمـــــة!	دفنــــت عظـــامي في الـــتراب
بـــين الغصـــون الناعمـــة	والـــورد محمـــر الأهـــاب
فبعثـــت مـــن وســـط الشـــجر	طـــيراً أنـــوح علـــى الغصـــون
متـــــنقلاً بـــــين الزهـــــر	بـــين الجـــداول والعيـــون

(١) هو بالطبع صوت مرغريت وقد سجنت لأنها قتلت طفلها بأن ألقته في غدير. وقد أصابها خبل من جراء هذا فكلامها مضطرب، وهي تنشد أغنيتها بلسان طفلها

فاوست :

(يفتح القفل)

ما أخالها تعرف أن حبيبها على قاب قوسين وأنه يسمع صليل قيودها وحفيف فراشها الجاف.

(يدخل غرفة مرغريت)

مرغريت:

(تحاول الاختفاء تحت الفراش)

أواه! ويلاه! إنهم قد أتوا يحملون إلى الموت الزؤام.

فاوست : (هماً)

صه! صه! ما أتيت إلا لإنقاذك

مرغريت:

(مرتمية على قدميه) إن كان بين جنبيك قلب يرق فارث لمصابي!

فاوست :

ويحك لا توقظي السجانين بصياحك.

(يفك قيودها)

مرغريت: (راكعة)

أيها الجلاد! إني لك الحق والمقدرة؟ أن تسوقني إلى حتفي وسط هذا الليل البهيم؟ إلا قلب رحيم يردعك فتتركني أعيش حتى الصباح.

(تنهض واقفة)

أأقتل وما زلت في ريعان الصبي؟ ومنذ زمن غير بعيد كنت غادة حسناء ذات جمال، ولو أن هذا كان علة شقائي وأصل بليتي. وكان إلى جانبي صديق ودود. أما الآن فقد نأي عني. بعد أن مزق إلا كليل وبعثرت الزهور. وفرقت أيدي سيا...

بربك! لا تمد إلي يد القسوة والغلظة!

ارأف بي! ولا تدعني أسترحمك عبثاً

ماذا أجرمت نحوك وأنا مارأيتك في حياتي من قبل؟

فاوست :

يوشك هذا الألم المبرح أن يقضي علي.

مرغريت:

ها أنا ذي بين يديك فافعل بي ماتشاء. لكن أمهلني قليلاً حتى أرضع طفلي ، لقد كنت أناغيه وألاعبه طول ليلتي هذه. ثم جاءوا فانتزعوه من بين ذراعي فأعقبوا لي الحزن والضنى.. ثم زعموا إني قتلته فواحزني إن السرور لن يجد إلى قلبي مدى الدهر سبيلاً .. يؤلمني أن أسمع الناس وقد جعلوا من قصتي أغنيات يتغنون بها؛ وأناشيد يتداولونها. فياويحهم ماذا حداهم إلى سلوك هذا المسلك؟

فاوست :

(راكعاً أمامها) إن الحبيب الذي تيمه حبك يركع الآن بين يديك وقد جاء ليفك عقالك ويطلق سراحك.

مرغريت:(راكعة)

لنركع جميعاً ولنبتهل إلى الأولياء والقديسين! أنظر! هل تبصر ما تحت هذه

الأحجار؟ أن نيران الجحيم الهائلة كامنة تحت عتبة هذه الغرفة والشيطان جالس هناك؛ تثور تأثره أحقاده، وتغلى مراجل غيظه.

فاوست :

(بصوت عال) مرغريت! مرغريت!

مرغريت:

(تنهض واقفة فتسقط عنها الأغلال)

رباه! هذا صوته! هذا صوت الحبيب ولكن أين هو؟

لقد سمعته يناديني، فوا فرحي إنيالآن طليقة حرة

ولن يجرأ أحد على حبسي ومنعي؛ لأني سأرتمي على عنقه وأتعلق به

لقد ناداني: مرغريت، مرغريت:، وكان واقفاً هناك على تلك العتبة. وقد سمعت صوته العذب الجميل برغم ما يحيط بي من نيران الجحيم إلى ما برحت تستعر وتلتهب، وتزأر وتزمجر، فتصم الآذان.

فاوست :

ها أنذا بين يديك.

مرغريت:

أأنت هو؟ بالله أعد ذكر هذا على مسمعي، (تتعلق به) أجل إنه أنت؛ فوا فرحتاه! عفاه على الآلام والأسقام وبعداً لمخاوفي وأشجاني التي أثارها هذا السجن وهذه القيود.

أجل إنه أنت، وقد جئت لإنقاذي لقد أنقذت.. لقد نجوت وكأني الآن أرى ذلك الطريق الذي قابلتك فيه لأول مرة، والحديقة الجميلة التي كنت فيها

أنا ومارتا: نترقب زورتك بشغف وتلهف.

فاوست : (يحاول أن يخرج بها من الغرفة)

تعالي معي! تعال معي!

مرغريت:

رويدك.. ابق مع قليلاً! إني ليحلو لي البقاء إلى جانبك.

(تلاطفه وتعانقه)

فاوست :

عجلي، فلئن لم نسرع من هنا ساءت العاقبة؛ وندمنا وجاءت ساعة ندم.

مرغريت:

ما بالك لا تقبلني؟ هل بت عاجزاً عن التقبيل؟ إن عهدك بي ليس بعيداً؛ فكيف أنساك التقبيل هذا الفراق القصير؟

مالي خائفة مضطربة وأنا أعانقك الساعة! ولقد كنت من قبل أجد في حديثك ونظراتك ولثماتكنعيم الجنان و بهجة الروح وسعادة العمر كنت إذ ذاك تلثمني حتى تحتبس أنفاسي. والآن أما تريد أن تقبلني؟ إذن اقبلك أنا (تقبله)

ويلاه، إن شفتيك باردتان؛ قد خبت نارهما المتأججة. كما خمدت جمرة غرامك المشتعلة. فياويلي، من الذيكاد لي هذا الكيد؟

فاوست :

إلى أيتها الحبيبة: اتبعيني، تشجعي! ولسوف اعانقك عناقاً حاراً واقبلك بشفاه متقدة. ورجائي إليك الآن أن تسرعي فتتبعيني.

مرغريت: (ملتفتة إليه)

أهذا أنت حقاً؟ أهذا أنت من غير أدنى ريب؟

فاوست :

أجل أنا هو فأناشدك الله أن تتبعيني

مرغريت:

إذن يا للعجب! كيف جئت تفك أغلالي وتضمني بين ذراعيك. كيف لا تولي وجهك عني ذعراً واشمئزازاً ؟ أتعلم أيها الصديق من الجانية التي تريدتخليصها؟

فاوست :

تعالى! عجلي! إن الساعات تمر سراعاً؛ والليل مضى أكثره.

مرغريت:

لقد جرعت أمي كأس الحمام، وأغرقت طفلي بيدي.

فيا ويلي! ألم يكن هذا الطفل هبة قد منحناها أنا وأنت؟ أجل لقد كان هبة لك ولي.

أراني لا أكاد أصدق أنك أنت معي الآن. ضع يدك في يدي حتى أؤمن إني لست في حلم. ناولني يدك! لكن ما بالها مبتلة وكأني أرى الدم يسيل منها! أي شيء. صنعت؟ ناشدتك الله إلا أغمدت هذا الخنجر!

فاوست:

لا تذكرني الماضي، فإن الذكرى تثير شجني وتوشك أن تقتلني

مرغريت :

لا، إنك ستعيش. ويجب أن تعيش. دعني أنا أصف لك القبور وما انطوت عليه.

وعلى ذكر القبور أريد منك أن تعني بأمرها من الغد فأجعل أحسنها لأمي؛ تموضع أخي إلى جانبها؛ ثم ادفني إلى جانبهما ولا تبعدني عنهما كثيراً ثم ضع طفلي الصغير إلى جانبي عند ثديي الآن. ولا تدع أحداً سواه يقترب مني..

أيها الحبيب، لقد مضى زمن كنت أجد فيه السعادة كل السعادة في اعتناقك والتزامك. والآن هيهات لي مثل هذا النعيم، إني ليخيل لي كأني أحاول أن ألقي بنفسي بين يديك فتدفعني عنك بغضب وازدراء

وها أنت قد جئتني اليوم ونظراتك ملؤها الصلاح والتقوى.

فاوست :

فأما وقد أيقنت إني أنا هو فتعالي معي! اسرعي!

مرغريت:

أتخرج من هنا؟

فاوست :

نعم، إلى الهواء الطلق، إلى الحرية

مرغريت:

هل أعددت القبر هناك؟ أهناك ينتظرني الحمام؟ إذن هلم بنا، هلم إلى مهد الراحة الأبدية، وهناك فلتتركني ولا تذهب بي خطوة أخرى، أذاهب الآن. وهل لي أن أصحبك يا هنري؟

فاوست :

أجل يجب أن تصحبيني. فمالك لاتردين ذلك؟ إن الباب مفتوح فهلمي لنخرج!

مرغريت:

لا، ليس لي أن أخرج من هنا.

إني أصبحت وقد قطعت من خلاصي كل رجاء. ماذا يجدى الهرب وانهم ليتربصون بي السوء حيثما سرت. ولعمري إنه لن أشد البلاء أن أعيش عيش المتسولين وأعاني وخزات الضمير الأليمة.

وماذا يجديني أن أسيح في الأرض غريبة شريدة ثم يقبضون على ويعودون بي إلى السجن؟

فاوست :

سأبقى إلى جانبك

مرغريت:

بربك أسرع، أسرع لإنقاذ طفلك المسكين، اصعد في الطريق إلى جانب النهر حتى تصل إلى وسط الغابة، فإذا بلغت الغدير وأبصرت عن يسارك لوحا من الخشب ممتداً إلى حافة الماء؛ هناك فالتمس الطفل، انتشله من وسط الغدير، إني لأراه الآن وهو لا يزال يجاهد وحاول أن يطفو على وجه الماء.

أنقذه، أنقذه، بربك أنقذه!

فاوست :

تدبري أمرك قليلاً، خطوة واحدة من هنا؛ ثم تصبحين حرة طليقة.

مرغريت:

من لي بأن نصبح وقد جاوزنا هذا الجبل وتركناه خلف ظهرنا؟ أما اجتيازه الآن فأمر شديد. إن أي جالسة هناك على صخرة.. ويلى ما لجسمي يرتعد

ويقشعر.. أجل إن أمي جالسة هناك فوق صخرة وأرى رأسها يهتز تعباً واعياء.

عينها لاتبصر، فكرها لايعي. قد استولى عليها سبات عميق لقد رقدت رقاداً طويلاً ليس من بعده إفاقة

وما نامت هذا النوم إلا لكي ألهو و إياك وألعب. أوقات ما كان أطيبها أعذبها

فاوست :

هذا موقف لا يجدي فيه الرجاء ولا السؤال. ولم يبق إلا أن أحتملك قسراً

مرغريت:

لاتمد يدك إلى، لا أطيق هذه الغلظة. أتهاجمني مهاجمة القتلة الشريرين.

لقد كنت يوماً ما ..أطوع لك من بنانك.

فاوست :

عزيزي، عزيزتي، إن الفجر يوشك أن يطلع

مرغريت:

الفجر، أجل لقد طلع الفجر؛ وقريباً تطلع شمس يومي الأخير، لوساعد الجد لكان هذا اليوم يوم عرسي

لا تقل لأحد أنك كنت في صحبة مرغريت..

أسفي على! كليلي الذي فقدنه، لو كان يجدى الأسف،

إنا سنلتقي ثانياً، لكن لا في المراقص وأماكن اللهو

ما هذا الذي أراه؟ إن الجموع قد احتشدت وأصواتهم قد خفتت وضاق بهم الميدان الفسيح والطرق على رحبها.

تعد دقوا النواقيس إيذانا بموتي؛ وكسروا العصا[1]

انظر لها هم قيدوني وغللوني وأسلموني للمقصلة

الآن ينقض الصارم على عنقي وكأنما ينقض على أعناق الناس جميعاً فتراهم قد خرسوا وسكنوا سكون الموتى.

فاوست :

ياليتني لم أولد فأعاني كل هذا!

إبليس :(وافقاً باب الغرفة)

هلماا، وإلا تقضي عليكما. عبث كل هذا التردد والأحجام والتحادث والتي إن خيل ترتعد من طول الانتظار والصبح آذن بالطلوع

مرغريت:

ما هذا الذي انشقت عنه الأرض؟ أهذا هو؟ أخرجه من هنا! يا بغيه في هذه البقعة الطاهرة ؟.. إنه يبغيني.

فاوست :

يجب أن تيشي.

مرغريت:

يارحمة الله، ألقى بنفسي بين يديك..

إبليس :

(لفاوست) تعال، وإلا تركعك وإياها يفعل بكما القضاء مايشاء.

---

(1) إشارة إلى عادة كانت متبعة فيما مضى. فكانوا يدقون الناقوس حين يساق المجرم إلى المشنقة، ثم تكثر فوق رأسه عما يضاء قبل تنفيذ العقوبة

مرغريت:

رب إني أنا أمتك فانقدني؛ أيها القديسون أحيطوا بي واحرسوني.

أي هنري! إني ارتجف فرقاً منك

إبليس :

كتب لها الهلاك!

أصوات من السماء :

كتبت لها النجاة!

(إبليس لفاوست :)

هلم واسرع (يخرجان)

صوت من داخل السجن يختفي تدريجيا..

هنري .. هنري .

الفهرس